من القيم الإنسانية في الإسلام

للأستاذ الدكتور

محمد رجب البيومي

عضو مجمع البحوث الإسلامية ـ سابقًا

تقديم

أ.د/ إبراهيم صلاح الهدهد

رئيس جامعة الأزهر ـ سابقًا

الجزء الأول



مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

سيرة حياة

رحم الله العالم الجليل صاحب القلم الفذ، والعطاء الفياض الذي نـذر حياته خادمًا للعربية، تأليفًا وإبداعًا وتدريسًا، وتجديدًا، كما عاش قلمًا صادقًا للإسلام، ما انفضت كنانته يومًا، في عفة صادقة، وحجة دامغة، مع حسن أدب، ونصاعة بيان، ما حال بينه وبين قلمه إلا لقاء ربه، أكثر من ثمانية وثمانين عامًا، كانت كلها جهاد قلم صادق أمين، تحت راية الإسلام ولغة العرب، والأزهر الشريف.

ولد الدكتور محمد رجب البيومي في الكفر الجديد بمدينة المنزلة بمحافظة الدقهلية ١ / ١٠ / ١٩٢٣م، ولقي ربه السبت الثاني من ربيع الأول عام ١٤٣٢ هـ الموافق الخامس من فبراير ٢٠١١م، ودفن ـ رحمه الله ـ بمسقط رأسه.

تكوينه العلمي: يحدثنا الشيخ عن نفسه في كتابه (النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين) في الجزء السادس منه، فذكر أنه حفظ القرآن في سن العاشرة، وكان شرط الالتحاق بالأزهر أن يكون سن الطالب اثنتي عشرة سنة فبقي سنتين قبل الالتحاق بالأزهر حفظ فيها متون العلم في الفقه والنحو والتجويد مع ديوان حافظ إبراهيم، وقصائد من كتاب جواهر الأدب للهاشمي، ثم التحق بمعهد دمياط، وكانت المعاهد الدينية في مصر إذ ذاك سبعة معاهد، وفي المرحلة الثانوية انتقل إلى معهد الزقازيق، وتدرج في مراحل التعليم حتى نال درجة العالمية عام ١٩٤٩م من كلية اللغة

العربية بالقاهرة، ثــم حصل على دبلوم معهد التربية عام ١٩٥٠م، وفي عام ١٩٦٥م حصل على درجة التخصص الماجستير في الأدب والنقـد مـن كلية اللغـة العربيـة بالقاهرة، ونـال منهـا أيضًا درجة العالميــة الدكتوراه في اللغة العربية فــي الأدب والنقد عام ١٩٦٧م عن رسالة بعنوان (البيان النبوي).

عمل في مطلع حياته مدرسًــا بالتعليم الثانوي بالتربية والتعليم، بمحافظة الإســكندرية، ثم بمحافظة الفيوم، ثم عين مدرسًــا بكلية اللغــة العربيــة بجامعة الأزهر، وحصــل على كل الترقيــات، وعين رئيسًــا لقســم الأدب والنقــد ثــم أعيــر للعمــل بالمملكــة العربية الســعودية وبعد العودة عين عميدًا لكلية اللغة العربية بالمنصورة، لمدة عشــر سنوات، ثم عين أســتاذًا متفرغًا بها حتى لقي ربه، وقد أشــرف على كثير من الرسائل العلمية، وناقش كثيرًا منها، وشارك في كثير من الترقيات في البلاغة والأدب والنقد.

الشــيخ والصحافة: وهو في المرحلة الابتدائية أرســل تعليقًا لمجلــة الرســالة على كاتــب كبير فنشــرته المجلة بالعــدد الصادر فــي ٢٢ ينايــر ١٩٤٠م، وحين التحق بكلية اللغــة العربية بالقاهرة صار من كتاب مجلتي الرســالة والثقافة وشــعرائهما، وكان صديقًا شــخصيًا لأحمد حســن الزيات وكان على صلة وثيقــة بالإمام عبد الحليــم محمود والشــيخ محمود شلتوت والشــيخ محمد ســيد طنطاوي، والعقــاد وطــه حســين، وأحمــد أمين وســاطع الحصري ومحمد البشــير الإبراهيمي والأســتاذ على الطنطاوي ومحمد فريد وجدي ومحب الديــن الخطيب، والدكتور زكي مبارك وغيرهم كما كتب مذ كان طالبًا في الصحف القومية والمجلات الأدبية.

ففي مصر علاوة على ما مضى نشـر فـي (الأزهر) و(الكتاب) و(الهلال) وفي العالـم العربي: (الحـج) و(الرابطة) و(الدعوة) و(المنهـل) و(علامـات) و(الفيصـل) وهـي مجلات سـعودية، ومجلة (الأديب) البيروتية، و(الوعي الإسلامي) بالكويت و(منار الإسـلام) الإماراتيـة، وغيرهـا وقـد رأس ـ رحمـه الله ـ تحرير مجلة الأزهر إلى أن وافته المنية.

آثاره رحمه الله:

الدراسات الأدبية والعلمية:

١- البيان القرآني، أصدره مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.

٢- خطوات التفسـير البياني، أصدره مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.

٣- البيان النبوي، أصدرته دار الوفاء للنشر.

٤- أدب السـيرة النبوية عند الرواد المعاصرين، أصدرته اللجنة العليا للدفاع عن الإسلام بالأزهر.

٥- الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير، أصدره المجلس العلمي لجامعة الإمام محمد بن مسعود بالرياض.

٦- النقـد الأدبـي للشـعر الجاهلي، أصـدره المجلـس العلمي لجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض.

٧- أحمد حسن الزيات بين البلاغة والنقد، أصدرته دار الأصالة، بالرياض.

٨- دراسات أدبية، أصدرته دار السعادة، بمصر.

٩- نظرات أدبية (٤ أجزاء)، أصدرته دار زهران، بمصر.

١٠- حديث القلم، أصدره النادي الأدبي، بجدة.

١١- قطرات المداد، أصدره النادي الأدبي، بجدة.
١٢- التفسير القرآني، أصدرته المؤسسة العربية الحديثة.
١٣- إعـادة قراءة القرآن، نقد كتاب (جـاك برك) صدر عن دار الهلال.
١٤- بين الأدب والنقد، صدر عن الدار المصرية اللبنانية.
١٥- كيف عرفت هؤلاء؟ صدر عن الدار المصرية اللبنانية.
١٦- مصطفى صادق الرافعي، صدر عن دار القلم بدمشق.
١٧- علي الجارم، صدر عن المؤسسة العربية الحديثة.

الإبداع الأدبي للشيخ - رحمه الله:

• من نبع القرآن، ١٩٨٣م دار الأصالة، بالرياض.
• حصاد الدمع، ١٩٨٣م دار الأصالة، بالرياض.
• صدى الأيام، ١٩٨٤م مطبعة السعادة.
• حنين الليالي، ١٩٨٦م، مطبعة السعادة.

مسرحيات شعرية، وقصص:

- ملك غسان ١٩٨٤م، مكتب الجامعات للنشر.
• فوق الأبوة، (في كتاب واحد)، مطبعة السعادة، ١٩٨٥م.
• فاتنة الخورنق، قصة أدبية، دار الأصالة، بالرياض، ١٩٨٤م.
• في قصور الأمويين، مشاهدة تاريخية، مطبعة السعادة.
• مسرحية (انتصار) مطبعة السعادة.

مجموعة قصص الأطفال، في أجزاء متوالية:

أصدرتها دار الأصالة، ودار القاسم بالرياض عام ١٩٨٥م:
١- الفارس الشجاع.
٢- الهمة العالية.

٣- مؤامرة فاشلة.
٤- الفارس الوفي.
٥- يوم المجد.
٦- دجال القرية.
٧- الحبل الأسود.
٨- الفتاة المثالية.
٩- إلى الأندلس.
١٠- رحلة الخير.
١١- الله معي؟
١٢- بطل شيبان.
١٣- إلى الإسلام.
١٤- لست وحدي.
١٥- حكمة الله.
١٦- الأصل الطيب.
١٧- خاتمة الهرمزان.
١٨- في بيت المقدس.
١٩- المنصور وعقد الجوهر.
٢٠- السبَّاح الشهيد.
٢١- مروءة تلميذ.
٢٢- ثمرة الكفاح.

كتب في التاريخ الإسلامي والسير والقضايا الإسلامية:

١- الأزهر بين السياسة وحرية الفكر، دار الهلال.
٢- مواقف خالدة لعلماء الإسلام، دار الهلال.

٣- النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين (٥ أجزاء) ، دار القلم في دمشق ، والدار الشامية في بيروت .

٤- ابن حنبل ، عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر .

٥- مع الأبطال ، دار القلم ، بيروت .

٦- صفحات هادفة من التاريخ الإسلامي ، المؤسسة العربية الحديثة .

٧- من القصص الإسلامي (جزءان) ، المؤسسة العربية الحديثة .

٨- النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين (٦ أجزاء) .

٩- في ميزان الإسلام (جزءان) .

١٠- من منطلق إسلامي (جزءان) .

١١- مجالس العلم في حرم المسجد .

١٢- المثل الإسلامية .

١٣- في ظلال النبوة .

١٤- من شرفات التاريخ .

١٥- قضايا إسلامية (جزءان) .

١٦- صلاح الدين الأيوبي ، دار القلم بدمشق .

١٧- هارون الرشيد ، دار القلم بدمشق .

١٨- محمد فريد وجدي ، دار القلم بدمشق .

١٩- محمد حسين هيكل ، دار القلم بدمشق .

٢٠- أحمد أمين ، دار القلم بدمشق .

تحقيقات وجمع ودراسة:

١- السيرة النبوية في ضوء العلم والفلسفة ، الدار المصرية اللبنانية .

٢- مناقشات وردود، الدار المصرية اللبنانية.

٣- من معالم الإسلام، الدار المصرية اللبنانية.

٤- فصول من سيرة الرسول، الدار المصرية اللبنانية.

٥- توجيهات إسلامية، الدار المصرية اللبنانية.

٦- دراسات في الأدب العربي، الدار المصرية اللبنانية.

٧- بين النفس والحياة، الدار المصرية اللبنانية.

٨- مهمة الإسلام في العالم، لجنة الدعاية للإسلام بالأزهر.

ولقد كان الشيخ بهذا النتاج الثري أهلا لنيل العديد من الجوائز منها:

١- جائزة شوقي بالمجلس الأعلى للفنون والآداب بمصر، سنة ١٩٦١م، عن المسرحية الشعرية (انتصار).

٢- جائزة مجمع اللغة العربية الأولى، عن المسرحية الشعرية (فوق الأبوة) سنة ١٩٦٢م.

٣- جائزة مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٦٣م، عن ديوانه الشعري (صدى الأيام).

٤- جائزة مجمع اللغة العربية الأولى بالقاهرة سنة ١٩٦٤م، في الدراسات الأدبية عن كتاب (الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير).

٥- جائزة مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٦٥م، في التراجم الأدبية عن حياة (محمد توفيق البكري).

٦- جائزة وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٥٨م، عن المسرحية الشعرية (ملك غسان).

٧- جائزة مجمع اللغة العربية سنة ١٩٧٢م، عن المسرحية الشعرية (بأي ذنب؟).

بين يدي هذا الكتاب

هذا الكتاب يتناول موضوعًا هو عمود الإِسلام الحق، لذا استهله بخطاب دعاة الإِسلام لينهجوا نهج الأخلاق في دعوتهم، وقد بين أن الإِسلام يرتكز في دعوته على المثل العليا، والقيم النبيلة، وقد تناول عدة قيم كحقوق الحيوان، والعدل، وحرية التفكير، وتنوع الرأي وسمو الإِسلام بالنفوس، وسماحته، وغير ذلك من القيم الضابطة حياة المسلم قولا وعملا وسلوكا بين المسلمين أنفسهم، وبينهم وبين سواهم من بني الإِنسان والأمم من غير بني الإِنسان، نفع الله به قارئه، وغفر للشيخ العالم المؤلف وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم.

أ.د. إبراهيم صلاح الهدهد

مقدمة

منـذ اختلط الشـرق بالغرب ، حيـث داهمه بحضارتـه المادية ، وتفوقه السياسـي إذ اسـتعمر أكثر شعوبه اسـتعمارًا سياسيًا يخفي وراءه غـزوًا دينيًـا ، منذ وقع ذلك وألسـنة المفتريـن تتناول حقائق الإسلام بالتحريف ، ومبادئ الشريعة الإسلامية بالتشويه .

وكنـت تقرأ ما يقوله أهل الغـرض في ذلك ، فتجد من ينكر كل حـق في الإسـلام مع وضوحه الصريـح ، فإذا صدمته الآية السـاطعة مـن القرآن حـاول تأويلهـا ، وإذا جابهه الحديث النبـوي الصحيح تجرأ على إنـكاره ، وعزاه إلى الوضع والانتحال ، وإذا وجد مع واقع الإسـلام التطبيقي في عهدي الرسـول الكريم والخلافة الراشدة ما يـدل علـى مثالية الأهداف الإنسـانية في الإسـلام لجأ إلـى الافتراء الـكاذب ؛ فرمى الرواية التاريخية بالمبالغـة والتزيد ، وأخذ يصطاد الروايـات المدخولة ليضربها بالروايات الصحيحة ، ولينتهي إلى ما يريد من محق الفضائل الراسـخة شـفاء لنار تتأجج في صدر يستوي بالضغينة والعدوان .

وقد حاولت في هذه المقالات أن أتحدث عن القيم الإنسانية في الإسـلام بما لا يقبل اللجاج ؛ فعرضت بعض المثل الإنسانية عرضًا محايدًا ، أرجو أن يجـد صداه لدى من يميزون بين اللجاج المعاند ، والمنطـق المحايـد ، وأولئك هم الذين يسـتمعون القـول فيتبعون أحسنه مغتبطين ، وعلى الله قصد السبيل .

أ.د. محمد رجب البيومي

مثل الإسلام تبعث على اعتناقه

دراسة ميدانية

(أ) مقدمة:

منذ انتهت الحروب الصليبية، وخصوم الإسلام يفكرون في وسيلة أخرى للنيل منه، وقد ساعدهم على ذلك أن الدول الإسلامية فيما تلا هذه الحروب لم تستجب لداعي الزمن كي تواصل بحوثها العلمية لتواكب المد الحضاري في أوروبا، فكان من العجيب أن يتقهقر الشرق في المضمار العلمي متخلفًا، وأن يتقدم الغرب في عالم الاكتشاف والتقدم الصناعي سابقًا، حتى انفرجت الشقة عن دول تستعز بسلطان العلم، وما يقدم من أسلحة الانتصار والاحتلال، ودول تستكين أمام العدوان فتقع فريسة لاستعمار متربص بكل خير، ناهب لكل ثراء.

وما حان القرن التاسع عشر حتى أصبح العالم كما يقول الأستاذ عباس محمود العقاد: «منقسمًا إلى حضارة حديثة في الغرب، وحضارات قديمة في الأقطار الآسيوية والإفريقية، وكان المسلمون ـ إلا القليل منهم ـ في هذه الأقطار.

تخلف المسلمون عن ركب الحضارة في الصناعات والمخترعات والعلوم الحديثة، وأصابهم هذا التخلف في مرافقهم جميعًا، ومنها الزراعة والتجارة التي كان قوامها الأكبر على الملاحة الشراعية، فتراجعت شيئًا فشيئا أمام ملاحة البحار، وتراجعت كذلك عن سيادة البحار.

ولما تقدمت مرافق الصناعة والتجارة في الغرب تقدمت معها

وسائل التنظيم والإدارة، وبقي الشرقيون جميعًا، والمسلمون منهم متخلفين في هذه الوسائل إلى ما قبل نهاية القرن التاسع عشر بقليل، وأصبح العالم الإسلامي في مقدمة الأهداف التي تصوبت إليها حملات الغرب الثلاث، وهي: «حملات التبشير والاستغلال والاستعمار».[1]

كان هذا الضعف المؤلم مقارنًا بازدهار الدول المستعمرة مدعاة إلى بحوث مغرضة قام بها كتاب الغرب وأساتذة الاستشراق، فأخذوا يتحدثون عن الأمم الإسلامية متلمسين وسائل إصلاحها ـ كما يدعون ـ وقد أدت بحوثهم المغرضة بهم إلى القول بأن الإسلام علة العلل في تأخر المسلمين، إذ يعادي العلم الصحيح، ولا يتحمل الفكر الحر، كما أنه وليد بيئة صحراوية لا يصلح لغيرها، فلا يجوز أن يقود دولة ما في عصور الحضارة المزدهرة، وقد أصبح هذا اللون من الحديث التبشيري طابع الكتابة عن الإسلام لدى الكثرة من باحثي الغرب، حتى لدى من عرفوا باستقلال النظر واتساع الفكر، فوجد أساتذة مثل: أرنست رينان ينكرون أن يكون للعرب أدنى تقدم فكري.

وقد رد عليه جمال الدين الأفغاني بما هو مشهور متعالم لدى الدارسين، وتبع رينان تلميذه «الدوق داركور» فأصدر كتابًا يزعم فيه أن الإسلام عدو البحث النزيه، وأنه علة العلل في تدهور أبنائه في شتى الدول الإسلامية، وأن الإيمان بالقضاء والقدر لدى المسلمين جعلهم كسالى لا يصلحون لشيء، وقد قام قاسم أمين بالرد على هذه الأراجيف باللغة الفرنسية ليكشف ضلال هذه الترهات، ثم

---

(١) الإسلام في القرن العشرين للعقاد، ص٥٠

تعالت هجمات «المسيو هانوتو» وزير الخارجية الفرنسية طاعنًا الإسلام بأسوأ ما يمكن أن يفترى من الادعاءات؛ فرد عليه الإمام محمد عبده ردًا حاسمًا، ولكن تبجح المدعين لم يهدأ فقد سنحت أمامهم الفرصة إذ رأوا ضعف المسلمين في كل الدول الإسلامية، فلابد من انتهازها كي يطعنوا الإسلام.

وكان المَظْنُون بعد انتصار أوروبا على الدول الإسلامية في مطلع القرن التاسع عشر أن ينحسر مد الإسلام، وبخاصة أن الأقلام المغرضة قد شرعت تهاجمه كل يوم فما خلا أسبوع واحد من كتاب أو مقال أو ندوة تتسع للزراية على الإسلام والمسلمين، وإذا صدر في هذا المنحى بحث تبشيري ترجم سريعًا إلى لغات الإسلام، من عربية وفارسية وتركية وأوردية لينشر سمومه بين المسلمين في كل مكان حتى تخصصت أجهزة في وزارات الخارجية الاستعمارية لإذاعة هذه الافتراءات، وقد نسي هؤلاء أن الباطل يذهب جفاء، وأنه لا يصح إلا الصحيح.

لقد فوجئ المتحمسون لاتهام الإسلام بانتشار عقيدته في أماكن لم تعرفه من قبل، على أيدي أناس من التجار والوعاظ لا يعتزون بسلطان دولة، أو إرهاب سيف، بل يقرءون كتاب الله شارحين مفسرين فيستميلون الأفواج خلف الأفواج، في أفريقيا وآسيا، وكان امتداد الإسلام من السعة والشمول وسرعة الإقبال، مما أفزع خصومه، فظهرت بحوث أخرى لديهم تعلل ما أسمته بخطر الزحف الإسلامي، ولكن الحق لم يعدم النصير، إذ قام المستشرق الإنجليزي السير توماس أرنولد بكتابة بحث محايد تحت عنوان: «الدعوة إلى الإسلام» تحدث فيه بتركيز هادف عن انتشار الإسلام

فــي العالم كلــه، منذ ابتدائه حتــى آخر لحظة يكتــب فيها المؤلف صفحات كتابه، فأوضح أن أخلاق الإســلام نظريًا وتطبيقيًا، كانت مبعث انتشــاره، وقال في جلاء واضح: «وحيثما شق الإسلام طريقه نجد هناك الداعية المســلم حاملًا الدليل لعقائد هذا الدين، فالتاجر سواء كان من العرب أم الماندنج (السكان الأصليون الأفريقيون)، يجمع بين نشــر الدعوة، وبيع سلعته، وأن مهمته لتصله صلة وثيقة مباشرة، بأولئك الذين يريد أن يحولهم إلى الإسلام، وتنفي عنه كل ما يحتمل أن يتهم به من عوامل شريرة، وإذا ما دخل مثل هذا الرجل قرية وثنية، فسرعان ما يلفت الأنظار بكثرة وضوئه، وانتظام أوقات الصلاة والعبادات التي يبــدو فيها كما لو كان يخاطب كائنًا خفيًا، وأن ما يتحلى به من ســمو عقلي وخلقي ليفــرض احترامه والثقة به علــى الأهالي الوثنيين، الذي يبدي لهم في نفس الوقت اســتعداده، ورغبته في مدهم بمزاياه، ومعارفه السامية»[٢].

ومضت الأيام وانقضى القرن التاســع عشــر الميلادي، وهو من أقســى القرون شــدة على مواطن الإســلام، ومن أحفلهــا بالكوارث الداهمة للمســلمين، وكان من المرتقب أن يكون القرن العشــرون ذا نتيجة منطقية لما تقدمه من الاضطهاد والتشويه والتجني، ولكن المســرح ينقلب فجأة أمــام النظارة الذين يرتقبــون خاتمة الرواية، بمشــهد نهائي يصور اندحار هذه العقيــدة، بعد أن تتبعها الإرجاف الملــح؛ لأن رد الفعل المضاد قد أورث المســلمين يقظة وانتفاضة فبرزت للإسلام دولتان كبيرتان في آسيا هما أندونيسيا والباكستان، وأخــذت دول أفريقية تنشــط جاهدة للخلاص من الاســتعمار، وهي

(٢) الدعوة إلى الإسلام، تأليف أرنولد، وترجمة الدكتور: حسن إبراهيم وزميليه ص٢٩٧.

تضم قرابة من مئة وخمسين مليونا من المسلمين، وهؤلاء جميعًا يؤمنون بدينهم عن يقين صارم مكين، وفيهم من يبذل الروح سعيدًا في مناوأة خصومه الجاحدين؛ لأن التيار المضاد قد زاده حمية وحفاظًا.

لابد إذن من بحث تبشيري يعمق أسباب انتشار الإسلام على هذا النحو المباغت، في عهده الأخير، ولن يتجه البحث وجهته المعقولة فيعدد مزايا الإسلام الحقيقية التي تجذب إليه المنصفين، ولكنه يبحث عن مبررات هي إلى الاحتيال أقرب منها إلى البحث العلمي الصحيح، فقد انطلق هؤلاء المتألمون يبحثون عن تَعِلَّات موهومة حين يتحدثون عن تعدد الزوجات فيزعمون أنه يغري الإفريقي باعتناق الإسلام، أما في آسيا فالمنبوذون يرون في الإسلام مساواة عادلة تجذبهم إليه، وتلك فضيلة للإسلام حقًا، ولكن الذي يسجلها من هؤلاء لا يعنى بإيضاحها قدر ما يعنى بالقول بأنها كانت مصيدة في رأيه توقع المنبوذ في شرك جديد.

وبمراجعة ما قاله هؤلاء المغرضون نرى أن تعدد الزوجات كان مباحًا لدى الوثني قبل أن يعتنق الإسلام، فلو كان هذا التعدد وحده هو الذي جذبه إلى نور الإسلام لكان دينه الجديد بالنسبة إليه من قبيل تحصيل الحاصل، وإذن فلابد أن يكون انتقاله إلى الدين الجديد وليد اقتناع بمبادئ رحيمة تطمح إليها النفوس، وتتلاءم معها الفطر الصحيحة، أما المنبوذون فقد وجدوا مصدر خلاصهم في الإسلام فأنعم به دينًا يسوي بين الناس جميعًا، إذ لا فضل لأحد على أحد إلا بتقوى الله، ولكن الذين سارعوا إلى اعتناق الإسلام ليسوا هم المنبوذين وحدهم ففي الهند وجاوة

وسومطرة والصين ومختلف البلاد أناس مفكرون لم يكونوا منبوذين وقد سارعوا إلى الإسلام عن فحص واختبار إذ رأوه مهوى الأفئدة ومطمح النفوس.

والذين يقولون: إن الإسلام يرضي الشهوات حين أباح تعدد الزواجات، ينسون أن الإسلام قد حرم الخمر، وهي عند عاشقيها مما يصعب تجنبه، فإذا كان تملق الشهوات بابًا للدخول في هذا الدين، فإن تحريم الخمر مما يصد عنه، وأولى بهؤلاء الذين يعصرون أذهانهم في اصطياد المبررات المسفة أن يواجهوا الحقائق السافرة، إذ لا يفيدهم في شيء أن يعكفوا على تخيل شبهات لا تجد سبيلًا إلى الإقناع.

وإذا بطلت هذه التعللات فإن الأسباب الحقيقية لنشر الإسلام على هذا المدى الرحيب حيث اكتسح كل العقبات ليست مما يجهل؛ لأن أحكام الإسلام تشريعًا وهداية ذائعة مشتهرة، ولها كتبها المتعالمة بين الناس، أما الذي يجب أن يكون موضع دراسة ميدانية واقعية فهو دراسة أقوال من يعتنقون الإسلام في عصرنا الراهن لنعرف أي بريق جاذب كان من القوة الخارقة بحيث بدل عقائدهم المتوارثة، وجذبهم من دين إلى دين، وإذا كانت هذه الدراسة مما تتشعب وتمتد لكثرة من استضاءوا بنور الإسلام، فإن الاكتفاء ببعض الأقوال الهادفة مما يشبع رغبة المتعجل، وللتفصيل المستوعب بعدُ مجاله الفسيح.

وسأقدم فيما يلي كتابًا جادًا يرسل بعض الأشعة المنيرة عن واقع عملي لا مجال فيه لافتعال متخيل، أو تلفيق منتحل، بل هو الحق المجرد عن كل قناع وماذا بعد الحق إلا الضلال؟.

(ب) كتاب هادف:

منذ عشرين عامًا وأنا أقرأ بالمجلات الإسلامية مقالات تتحدث عن أناس يعتنقون الإسلام بعد دراسة واقتناع، وكانت هذه المقالات من الدسامة والقوة والنفاذ بحيث دفعتني إلى جمع نماذج هادفة منها، وكم كنت أود أن تنهض دار للنشر فتجمع كل ما ينشر بهذا الصدد في كتب دورية، تكون بتكاملها المتصل مادة للنظر الموضوعي، وموضعًا لدراسة فاحصة ترشد من يسعون إلى نشر الإسلام في الحياة الدنيا بقاراتها الخمس.

والحق أن الدعوة الإسلامية في حاجة إلى معهد خاص يدرس أساليب الإعلام المستنير، ويهيئ من الدعاة من يتسلح بسلاح العصر في ثقافته المتطورة، وحيويته الواثبة، ويلم بمشكلات الحائرين ممن يتعطشون إلى دراسة دين صحيح حر، ويجدون في الإسلام أملا ينقذ، وهاديًا يرشد، ومنارًا يضيء؛ لأن ثقافة العصر عجزت أن تنال الإسلام بما يسيء، بل إنها في لبابها الصحيح قد أقبلت نحو الإسلام مصافحة معانقة، ولو ذهبت غشاوات التعصب عن العيون لرأيت الإسلام يسيطر تلقائيًا ... ومادامت حوائل التعصب، وغشاوات الضلال تعوق النور أن يمتد إلى ربوع الظلام فإن واجبنا في نشر الإسلام يحتم اليقظة الجاهدة، والعمل المثابر حتى يظهر الله دينه، ولو كره الجاحدون.

لقد قرأت في هذه الأيام كتابًا تحت عنوان: «رجال ونساء أسلموا» في ثلاثة أجزاء متوسطة بقلم الأستاذ الهادف «عرفات كامل العشي».. فسرني احتفاله بموضوعه واهتمامه بمادته وصبره الجاد على المراسلة والمحادثة حتى تهيأ له هذا القدر من الصفحات،

والكتــاب بعد لذيــذ العرض على دســامة مادته، ولطيف إشــاراته، وفيه مجال نظر جاد لمن يهمه أن ينتشــر الإسـلام بين العالمين، إذ يرســم هواجس الحيرة ووساوس الشــك عند من لا يطمئنون إلى ما ورثــوه من عقائد، ثم يضيف إليها لـذة الاطمئنان وبرد اليقين لدى من هداهم الله إلى نوره، فتوجهوا إلى الإسـلام واثقين.. وقد تابعت أقوال هؤلاء المهتدين وفيهم من كان مسيحيا ومن كان يهوديا ومن كان هندوكيًا ومن مال إلى الإلحاد فاعتنق الشــيوعية أو الوجودية، ومن كان الانحلال الخلقي يقضي على شــبابه وقوته فيرمي جســده بالهزال فالفناء ويصم ســلوكه بالانحطــاط والتدهور حتى أبصر في حالك الديجور قبسًــا من نور الإسلام، فكان صخرة النجاة للغريق، ومرفــأ الســفينة التي غالبــت الأعاصير حتــى انتهت إلى الشــاطئ بسلام، وفي هذه الأقوال ما يوجه دعاة الإسلام إلى خير ما يجنون به أطيب الثمار بأيسر الجهد لو عرفوا الطريق.

لقد كان الإسـلام بيسره وســماحته عامل جذب قوي لمن وازنوا بيــن الضر والنفــع والخير والشــر، فرجحــت لديهم كفــة العقل، وأجابــوا داعي الله عن اقتنــاع منطقي لا تعترضه الوســاوس ثم هبوا يعلنــون علــى الملأ حقيقة ما اهتدوا إليه من دين يشــد الأزر ويقوي العــزم ويعلو بمعتنقه على مفاســد البيئة، وأوهــام التقليد، إذ يريه الرشــد من الغــي ويهديه النجدين، وفي اســتعراض جانب من أقوال هــؤلاء المهتدين ما يجلو أهم الحقائق الناصعــة التي يتميز بها هذا الدين القويم.

(ج) سلوك المسلم:

كان سلوك المسلمين في عهد الفتوح الأولى سر انتشار الإسلام

فيمـا امتد إليه من أصقاع، ولو كانت القوة الحربية وحدها هي التي أرهبت فارس والروم لتقلص الإسلام بتقلص هذه القوى الواثبة، ولكن التاريخ يثبت أن سلوك الفاتحين كان مصدر تمسك المغلوبين بدين الغزاة حين رأوهم رسـل رحمة وفضيلة، دعاة عدل ومسـاواة ورجال أخـوة ووئام بجوار الأمم التي اعتنقت الإسـلام طواعيـة دون قتال، بحيث كان التاجر الأعزل يتقدم بدينه إلى المئين والآلاف داعيًا إلى سـبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسـنة، فيجد الاستجابة السريعة والامتثال المطيع، إذ يكون داعية بلسـانه، وقدوة بسـلوكه الأبي، وخلقـه الوفي، وطهره النبيل، وما سـجله التاريخ في هذا المضمار يجـد مثيله فيمـا اعترف به هـؤلاء المهتدون إذ رأوا في سـلوك من دعوهم إلى الإسـلام نبلا حيًا، وطهـرًا رفيعًا، ورحمة حانية، ونصرًا وتعاونًا وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر، وإخاء في ذات الله يقوم على البر والإنصاف دون تحيز أو استعلاء.

١ - كان «استريد هيرمـا سـمارت» الأمريكـي طالبًـا بجامعـة إلينـوي بالولايـات المتحـدة، وقد أتيح لـه أن يدرس القـرآن، وأن يصاحب بعض المسلمين، فوجد من إخائهم المتعاطف ما دفعه إلى مناقشـتهم، والاندماج في صحبتهم، حتى أنـس بما ينعمون به من تراحـم أخوي لا يعرف الغـرض.. فكان هذا المجتمـع النظيف في نهجه السلوكي المتراحم مصدر إعجابه بالإسلام، وسر انجذابه إلى المسلمين، وهو يقول في ذلك «ص١١ ج١»:

مَن غير المسلم يتبرع بتوصيلي إلى البيت وسط عاصفة ممطرة؟ وقد علمت فيما بعد أنه تلقى رسـالة من عائلته بنبأ عن وفاة والده؟ ومَـنْ غير المسـلم يجمع التبرعات لأخيه المسـلم الذي استنزف

أمواله كي يتسنى له دراسة سنة أخرى لإنهاء إجازة الدكتوراه؟ ومن غير المسلمين يساعدون أخًا لهم على نقل أغراضه التي ملأت ثلاث سيارات عندما طلب إليه إخلاء البيت فجأة؟ وقد قام بهذه العملية حوالي ثمانية عشر مسلمًا»!

٢ – ويقول «ركس إنجرام» الإنجليزي في بعض حديثه «ص٣١ ج١»:

«وفي الثلاثينيات قدمت إلى الإسكندرية وهمت على وجهي حتى وصلت إلى دمنهور، وعلى شاطئ ترعة هناك رقدت، وفي أثناء نومي رأيت دخانًا يتجمع ثم يضيء. وصحوت وكلمة الإسلام ملء ناظري وحواسي، وفي الطريق ما مررت بقروي إلا أقرأني السلام، ودعاني للطعام، وبذل جهده في إكرامي وإضافتي في منزله، وأنا غربي وهم شرقيون، أختلف عنهم طبعًا ودينًا فما بالهم يسارعون إلى إكرامي، أنا الذي رأيت كيف يرتاب الناس في بعضهم عندنا، وإذا وجدت رجلا يأكل ووقفت إلى جانبه، فهل هو يشركك في طعامه عن طيب خاطر؟ وهل إذا قرعت بابًا يفتح لك على مصراعيه فتنزل ضيفًا كريما؟ تواردت هذه الخواطر على نفسي وحاولت الإجابة عنها، وعند ذلك علمت أن الإسلام هو الذي جعل تلك النفوس حية كريمة».

٣ – أما «حسين رءوف» فقد كان مصلحًا اجتماعيًا من خير شباب الإنجليز المثقف، إذ ولد لأبوين أحدهما يهودي والآخر كاثوليكي، ثم تربى في مدرسة إنجليزية فاتجه إلى دراسة اليهودية فأنكر عليها أنانيتها المتعالية وازدراءها لإخوان يشاركون اليهود إنسانيتهم البشرية ووجدها في النهاية طقوسًا ...دون تأثير حي

في الروح الإنسـاني، ولكنه عاشـر المسـلمين في لندن فشاهد من سلوكهم الذاتي ما طمأنه بداهة إلى سمو دينهم الواقعي، وقد أفاض في ذلك قائلا عن نفسه «ص٤٥ ج٢»:

«وقد دعيت ذات يوم لمشـاهدة الصلاة «الإسلامية» والمشاركة في تناول طعام الغداء الذي قدم عقب صلاة العيد، وكان ذلك في عام ١٩٤٥م ممـا أتاح لي الفرصة لتأمل مجموعة دولية من المسـلمين عـن كثب... لم تكن تلـك المجموعة من العرب، ولا من أية قومية أخـرى وإنمـا كانـت ثلـة تمثل مختلـف أجنـاس الدنيـا وطبقاتها الاجتماعية وكان فيها شـتى ألوان البشـر، فقـد التقيت ضمن هذه المجموعة بأمير تركي، كما لقيت أناسًا يمكن اعتبارهم في الحياة العملية من طبقة الشحاذين، وجلس هؤلاء وأولئك جميعًا يتناولون طعام الغداء «بمناسبة العيد» بعضهم مع بعض، ولم تبد من الأغنياء أية بادرة تنم عن التواضع المفتعل، كما لم تشم أي رائحة من النفاق المغرور بالنسـبة للشعور بالمسـاواة التي كانت تنبعث من الرجال البيـض، وهم يتحدثـون مع جيرانهم الزنوج، ولـم تجر أي محاولة للانسـحاب أو الانعزال عن بقية البشـر «كما في اليهودية» كما لم أشـاهد أي تعاظـم مضحك من قبـل أي أحد منهم يتصنـع الفضيلة ويخفي الأثرة.. وهذا جو لم أعثر على مثله في مكان آخر، وحسبي أن أقول أني دخلت هذا الدين بعد تفكير وتأمل مناسب وبعد دراسة جميع الأديان المهمة في العالم».

ثم يقول «ص٤٨»: «لقد سافرت إلى أقطار كثيرة في أنحاء العالم وأتيحت لي فرصة كافية لملاحظة طريقة اسـتقبال الأجانب في كل مـكان، فلم أجد أحدًا مـن أتباع الديانات الأخرى كالمسـلمين في

كرم ضيافتهم وعطفهم على الغرباء المبرأ من كل مصلحة، بصرف النظر عن رد الفعل المبدئي المتمثل أحيانًا في مساعدة الغريب، أو مسألة معرفة هويته، واكتشاف المزايا والفوائد التي يمكن جنيها من ورائه».

لقد أطلت بعض الشيء في الاستشهاد بحديث هذا النابغة الذكي؛ لأن ذهنه اللماح قد هداه إلى اكتشاف الأغوار العميقة بعد أن تجاوز القشور السطحية فهو يفرق بين التواضع الطبيعي، والتواضع المفتعل، ملاحظًا دلائل هذا وذاك كما يفطن إلى النفاق المغرور عند من يصطنع المساواة والإخلاص الطاهر لدى من يعتقد هذه المساواة اعتقادًا لا يعرف الغش والدجل، ثم هو يهزأ بكل تعاظم مضحك من قبل من يتصنع الفضيلة ويخفي الأثرة وكل ذلك لا يتضح بجلاء إلا لعين ناقدة تتسلح بالقراءة الذكية والاستشفاف البصير، والإحساس الحي، كما يقدر في حسابه رد الفعل المبدئي حين يتكارم البخيل رغبة في اكتشاف المجهول والاستفادة مما يمكن أن يتاح لدى هذا الغريب الوافد، ومثل هذا الإنسان النابه جدير بأن يكون عالما نفسيا وخبيرًا اجتماعيًا.

٤ - ونختتم حديثنا عن سلوك المسلم بما تحدث به مسلم إنجليزي بارز وقد شغل منصب قائد في سلاح الدفاع الملكي البريطاني كما كان رئيسًا لجمعية سلسي للمحافظين وهي رئاسة لم تأت عفوًا دون اختبار، بل جاءت نتيجة اعتراف حقيقي بالكفاءة التامة والموهبة المقتدرة، وقد مهد لحديثه بمقدمة منصفة جلا فيها حقائق مهمة رغم إيجازها الدقيق.

قال عبد الله أرشيبا هاملتون الإنجليزي «ص ٨٠ ج٢»: «كان

اعتناقي للدين الإسلامي تلبية خالصة لما يمليه ضميري، ومنذ ذلك الحين وأنا أحس أني رجل أفضل، وأصبحت إنسانًا حقيقيًا، ليس هنالك أي دين من الأديان تعرض لمثل ما تعرض له الإسلام من إساءة على يد الجهلة والمتزمتين، ولكن يا ليت قومي يعلمون أن الإسلام يمنح القوة للضعيف، والغنى للفقير».

ثم يتحدث عن السلوك الإسلامي حديث المشاهد المتأمل، فيقول «ص ٨١ ج٢»:

«لا أحسب أني بحاجة كبيرة إلى الحديث كثيرًا عن مبدأ الأخوة العالمية بين البشر في الإسلام، فهذه حقيقة مسلم بها إذ إن الأمير والحقير، والغني والفقير كلهم سواسية، وإني ألمس دائمًا هذه الروح الكريمة بين إخواني المسلمين، كما أثق بحديثهم، فقد لقيت منهم كل معاملة عادلة كرجل عادي وأخ لهم، كما تكرموا علي أعظم الكرم واستضافوني أحسن الضيافة فأنا أشعر دائما أني واحد منهم».

وكان بودي في ناحية السلوك الإسلامي أن أشير إلى بعض مشاهدات صديقي وأستاذي الكبير عبد الكريم جرمانوس من الكتاب، فيها الخبرة الواعية والدقة الحصيفة والنفاذ اللامح، ولكني أعرف الرجل شخصيًا والحديث عنه يتطلب مقالا برأسه.

(د) دين الفطرة:

العقيدة الإسلامية من الوضوح والبداهة بحيث يتقبلها العقل المنصف في يسر إذا سلم من غشاوات الغرض، وشوائب الريب، وهي في صميمها دعوة الله التي ترددت على ألسنة الرسل جميعًا وهتفت بها جميع الديانات في عهود أنبيائها المرسلين مصداقًا

لقول الله – عز وجل – :

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾

(الشوري : ١٣)

ولذلك كان القرآن مهيمنًا على ما قبله ، يدل على الحق الأصيل ، وينفي الباطل الدخيل . والمسلمون فرحون بعقيدتهم السهلة الواضحة . . .

حقوق الحيوان في الإسلام

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٨)

١ - آراء قديمة:

اشتهر لدى القدماء من علماء الغرب أن الحيوانات كائنات آلية، لا تتمتع بذكاء، فهي تتحرك تحركات غريزية دون أن تعي من أمرها شيئًا، وبالغ بعضهم فزعم أن نصيب الإحساس لديها ضئيل، وهو زعم ينقضه الواقع المشاهد للعيان، وليس بحاجة إلى دقة في الملاحظة كي تتضح قضيته على الوجه الصحيح، بل إن فيلسوفا كبيرًا مثل «ديكارت» وهو من هو ! قد أبدى من الآراء في الحيوان ما يكاد يلحقه بالنبات، ولكن تقدم العلوم قد ارتفع بالحيوان إلى مستواه من الإحساس التام، والشعور بمؤثرات اللذة والألم والراحة والتعب والجوع والشبع والظمأ والري على نحو يكاد يطابق شعور الإنسان، بل إن هذا التقدم العلمي قد رصد خطوات الطير والحيوان رصدًا دقيقًا فوجد لديها من النظام الاجتماعي ما يكاد يشبه نظام الإنسان، فالنمل والنحل وأسراب الطيور التي تنتقل من أفق قريب إلى أفق بعيد، وطوائف الظباء والفيلة التي ترد الماء في صفوف متراصة وتخضع لقائد يقود، بل زمر النمال التي تقيم جسرا من أجسادها لتعبر عليها طوائف أخرى من فصائلها مضحية بنفسها في سبيل الصالح العام عن طواعية لا تعرف التردد، إن هذا التقدم العلمي الناطق بأوضح أدلة الواقع الملموس قد جاء مؤكداً قول الله - عز وجل -:

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾
(الأنعام: ٣٨)

لأن الأمة ذات اجتماع متعاون يدفع الشر ويهيئ أسباب الخير، وهل فيما نشاهد من تعاون الحشرات والحيوانات والطيور إلا أمثلة حية تنطق بهذا التعاون الجاد؟ لذلك جاء الإسلام مؤكدًا حقوق الحيوان وداعيًا إلى الرأفة به، إذ هو في لبابه ذو شعور وإحساس.

٢ - جمعيات الرفق بالحيوان:

وقد أسست في أوروبا جمعيات الرفق بالحيوان، وكانت إنجلترا أول الدول نهوضًا بهذه الجمعيات، وإذ ظهرت أول جمعية بها في سنة ١٨٢٤م، وكان ظهور هذه الجمعيات وانتشارها في شتى عواصم الممالك والدول الغربية مدعاة فخر متزايد لهؤلاء الذين يزعمون أن التقدم الحضاري لديهم قد بعث على إنشاء هذه الجمعيات، ولو كان هؤلاء الزاعمون لم يدرسوا الإسلام قرآنًا وحديثًا وتشريعًا وتاريخًا يمتد إلى أربعة عشر من القرون، لقلنا إنهم يجهلون ما لدينا من الروائع الخارقة في مضمار الرأفة بالحيوان، ولكنهم قد خصصوا فريقًا من باحثيهم في شتى دولهم للإلمام بشريعة الإسلام، فظهر مئات الدارسين ممن يعرفون بالمستشرقين، وقد ترجموا كتاب الله وحديث رسوله، وصحائف التشريع إلى لغاتهم المختلفة، ففيم تجاهل الحق الواضح؟ ونحن لا ننكر أن المسيحية الأصيلة قد قامت على الرحمة والحنان، ولكننا نتساءل: أين أثر هذه الرحمة فيما تنزله دول أوروبا بالآمنين من بواعث الفتك المدمر، وقذائف القنابل الصاعقة دون جرم يبعث على هذا الدمار المتأصل الساحق؟ أفيكون مظهر الرحمة لدى

هؤلاء إنشاء جمعيات تعطف على فصائل من الحيوانات وحدها، أم أن الرحمة مظهر عام يشكل الكائنات جميعها؟

٣ - يردون على أنفسهم بأنفسهم:

وإذا كان الحق لا يعدم أنصاره في كل زمان ومكان، فقد وجدنا من هؤلاء الذين يزعمون لأنفسهم التفرد بالرحمة دون سائر الناس من يريهم تناقضهم الكبير فيما يتناولون من القضايا المتشابهات، فقد احتجت جمعية الرفق بالحيوان في أمريكا حين فجرت الولايات المتحدة قنبلتها الذرية في المحيط الهادي فقتلت آلاف الحيوانات المائية حيث طفت على ظهر المحيط جثث هذه الضحايا المسكينة على نحو يبعث التحسر والالتياع، وقدمت جمعية الرفق بالحيوان احتجاجها الواضح معلنة تأثرها الشديد! وكان على أعضاء هذه الجمعية الكريمة أن يمتدوا برحمتهم إلى الإنسان - أيضًا لأن الرحمة شعور تام لا يتجزأ تجزؤا يفرق بين حيوان وحيوان.

كان على أعضاء هذه الجمعية أن يعلنوا احتجاجهم حين أسقطت الطائرة الخطيرة قنبلتها الذرية على هيروشيما، فقتلت عشرات الآلاف في طرفة عين، وتركت آلاف المشوهين يعانون من آلام المرض ما استراح منه هؤلاء الذين بلعتهم الأرض في غمضة طرف! إن الشعور بالرحمة على الكائنات شعور نبيل يجب أن يسود الناس جميعًا، ولن يصدق هذا الشعور حتى يشمل كل كائن حساس ليجتث بواعث الألم قبل أن تهيأ لها الأسباب.

٤- بواعث الرحمة الإسلامية على الحيوان:

يعلم رجال التشريع الإسلامي أصول فقههم الحكيم، فهم يعرفون بناءه على الأخلاق الوطيدة، والتزامه بما يفي بحقوق

الكائنـات وفاء يـدرأ عنها الإجحاف والتعسـف، وإذا كان الحيوان ذا شـعور يتعذب ويفرح فلا بد أن نمنع أسـباب تألمه وعذابه، وقد وصف رسـول الإسـلام بأنه نبي الرحمة، والرحمة معنى عام يشمل كل كائن لذلك دعا رسول الله دعوات صادقة إلى الشفقة بالحيوان؛ فامتلأت كتب الحديـث بوصاياه الرحيمة وأوامره الحكيمة وحفظ صحابتـه المخلصون ومن تبعهم بإحسـان أوامـره ونواهيه فالتزموا بها التزامًا، ظهر في سـلوكهم الإنساني عملًا وفي مدونات الفقهاء علمًا، فإذا أراد قارئ محايد أن يقف على نبذ من هذه الروائع الباسقة فسنقدم له ما يلمؤه اقتناعًا بعطف الإسلام على كل كائن حي.

ولعـل فيما نقدم من النصوص الصحيحـة ما يقنع ذوي الارتياب ممن يحسبون الرأفة بالحيوان عملًا حضاريًا سبق به الغرب وتخلف عنه الإسلام.

٥- من أحاديث النبوة:

١ – روى أبـو داود عن عبد الرحمن بـن عبد الله بن الخطاب عن أبيـه قال: كنا مع النبي ﷺ في سـفر فانطلق لحاجتـه فرأينا حمرة (طائر) معها فرخان فأخذنا فرخيها فجاءت الحمرة فجعلت تعرس -أي ترتفع وتطل بجناحيها- فقال رسول الله: من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها.

٢– فـي صحيـح البخـاري أن رسـول الله ﷺ قـال: «بينما رجل يمشي بطريق اشـتد عليه العطش فوجد بئرًا فنزل فيها وشرب، ثم خـرج فـإذا بكلب يلهث يأكل الثرى من العطـش، فقال الرجل: قد بلغ هذا الكلب العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب، فشكره الله فغفر له، قالوا: يا رسول

الله وإن لنا في البهائم لأجرًا؟ فقال: في كل ذات كبد رطبة أجر».

٣- في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «عذبت امرأة في هرة حبستها فلم تطعمها ولم تسقها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض».

٤- روى أبو داود عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتخذوا ظهور دوابكم منابر، إنما سخرها الله لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض فعليها فاقضوا حاجتكم».

٥- روى أبو داود عن عبد الله بن جعفر -رضي الله عنه- قال: كان أحب ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدف أو حائش نخل -ما اجتمع من فروع النخل- فدخل حائطًا لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل؛ فلما رأى رسول الله حن وذرفت عيناه فأتاه رسول الله فمسح عليه بيده، ثم قال: من رب هذا الجمل؟ قال فتى من الأنصار: هو لي يا رسول الله. فقال: أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكا إلى أنك تجيعه وتعذبه».

٦- روى أبو داود أن رسول الله ﷺ رأى قرية نمل قد أحرقت فقال: من أحرق هذه؟ فقال من معه: نحن، فقال -عليه السلام-: «إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار».

٧- روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة؛ إلا كان له به صدقة».

٨- في صحيح مسلم أن امرأة كانت على ناقة فلعنتها فسمع رسول الله ﷺ ذلك، فأمر بإعراء الناقة مما عليها وإرسالها عقوبة

لصاحبتها، وفي رواية أنه قال: «لا تصاحبنا ناقة ملعونة».

هذا بعض ما جاء في السنن عن رسول الله ﷺ وهو في وضوحه البارز أظهر من أن يحتاج إلى تعليق.

٦- مدونات التراث:

من يطالع ما جاء في كتب الصحاح عن الرأفة بالحيوان يدرك ما استشعره رسول الله من شدة إحساس هذا النوع من المخلوقات، وقد امتلأت كتب الأدب العربي القديمة بنوادر عن وفاء بعض الحيوانات ظنها بعض الدارسين خرافات تتداول بين الناس لما دلت عليه من رأفة؛ لا أنها حقيقة حية تنبئ عن واقع ملموس، مع أن هذه النوادر تشفع كثيرًا بأشعار حية قالها الأدباء متأثرين بما شاهدوه من المواقف، وبعيد جدًا أن يختلق الشاعر حادثة ليبني عليها قصيدة يذيعها بين الناس، ففي مواقف الحياة من خوارق المفاجآت ما يغني عن الاختلاق والشاعر الذي يصف مشاعر ناقته أو أحاسيس فرسه أو وفاء كلبه يعبر دائمًا عن شعور حي قام بنفسه ولا يوجد من يتهمه بالافتعال كما يتهم حينا إذا مدح من لا يستحق المديح؛ طمعًا في نواله أو هجاه يأسًا من عطائه، وإذا جاز لبعض الناس أن يشك فيما روته كتب التراث من روائع مدهشة عن الحيوان وشدة إحساسه وفرط تأثره فليتركوا كتب القدماء إلى ما رواه المعاصرون ودونوه في هذا النطاق، وهو من الكثرة بحيث يوجب أن يحتذى بأمثلة قليلة تقوم مقام الكثير مما تردد في كتب الرحلات المعاصرة، وتتناقله الصحف والمجلات.

٧- أمثلة معاصرة:

١- ذكر قائد إنجليزي في مذكراته عن الحرب العالمية الأولى

أنه في أحد جولاته بين المعسكرات الحربية شاهد على بعد جوادًا منكس الرأس لا يترك مكانه ؛ فقذفه بالحصى كي يحمله على الانتقال دون جدوى فزحف إليه فوجده يحجب فارسه القتيل، وقد طرح على الغبراء صريعًا فحاول الجنود اصطحاب الجواد إلى ما وراء خطوط القتال ولكنه تشبث بالبقاء تشبثًا غريبًا فحملوا الصريع وساروا به فتبعهم الجواد في تأثر أليم، وظل يجاور الفارس الصريع طيلة الليل فاضطروا إلى أن يعصبوا عينيه بالسواد كيلا يرى شيئًا، وبعد مدة طويلة قادوه فانقاد دون أن يرى شيئًا، ويقول الكاتب: إن الجواد توهم أنهم حملوا صاحبه وبذلك ارتضى أن يسير.

٢- ذكر السائح الشهير (فوريس) أنه كان مرة في غابة من غابات أفريقيا فصاد قردًا واحتمله قتيلًا إلى خيمته، فلما مضت برهة سمع لغطًا كبيرًا حول الخيمة فخرج فرأى غوغاء القردة قد تجمعت وتصخب وكأنها تطالب باسترداد القرد المخطوف، فلم يبال بها فلما هدأت الضوضاء خرج فوجد قردًا حزينًا يبكي وتسيل دموعه في تذلل وانكسار وبعينه استرحام يذيب قلب الجماد، فرق له وأحضر الجثة فحملها وأخذ يجرها باكيًا متألمًا يريد أن يسير بها إلى مكان رفقائه، قال (فوريس) فشعرت بحسرة مفرطة في قلبي وأقسمت ألا أقتل قردًا بعد ذلك.

٣- ذكر الجراح الفرنسي الشهير (بييراك) أنه وجد يومًا قريبًا من داره كلبًا جميلًا مصابًا بتكسر في أصابعه، وقد برح به الألم فأمر بإدخاله إلى الدار وأخذ يعنى بأصابعه، فجبر عظامها وما زال به حتى شفي تمامًا، فلما استرد صحته غادر المنزل مبتهجًا ومضت خمسة أشهر جاء بعدها الكلب إلى الطبيب فدعاه أن يلج منزله

فأبــى وأخــذ ينظر إليه مســترحمًا ويجذب ثوبه بفمــه كأنه يريد أن يتبعه، فانقاد له الجراح وســار وراءه فأوصله إلى كلبة مطروحة على مقربة من الدار تشــكو ما كان يشــكو صاحبها من تكســر الأصابع فعلــم الجراح أن الكلب قادها لتجــد علاجها لدى الطبيب، فدهش الجراح لمشاعر الكلب وقام بالعلاج.

٨- أمثلة من التشريع الإسلامي:

نعرف أن الإســلام ديــن الفطرة وأن أحكامه تســير دائمًا وفق ما ترتضيه الطبائع الســليمة، فإذا كانت فطرة الإنســان الســوي تهفو إلى الخير وتنأى عن الشــر فإنها ترحب بما تفرضه شــريعة الإسلام مــن حماية الضعيف وعون اللهيف والرفق بالكائن الحي إنســانًا أو حيوانًا، أما أصحاب الطبائع الشــاذة من غلاظ الأكباد وصم القلوب فإنهــم لا يبالون بإيذاء الضعيف وتعذيبه بــل ربما تلذذوا كثيرًا بما يتكرر أمامهم من مصارعة الثيران ومهارشة الديوك، ولا أدرى كيف يكون المصارع بطلًا لأنه هجم بالسيف على ثور مسكين دفع به إلى الميــدان دون أن يــدري ماذا يراد به ويراد منــه، وقد تكتنفه عوامل الرعب من ســتائر حمر وســيوف تشــرع وكل ذلك فــي بلاد تباهي بســبقها المدنــي وبين أنــاس يرون أنفســهم ممن يســكنون أعرق القــارات حضــارة وتقدمًا وارتقاء؟ ليســمع هؤلاء شــذورًا مما دونه فقهاء الإســلام فــي كتبهم التشــريعية؛ ليعرفوا كيــف يكون الرفق بالحيوان لدى قوم تهديهم شــريعة السماء لا قوانين الأرض ويا بعد ما بين الاثنين.

١ - يجب النفقة للبهائم المملوكة سواء كانت مما يؤكل لحمها أو ممــا لا يــؤكل، فإن امتنع مالكها أجبره الإمام على بيعها ولو كان

لهـا ولد ولـم يكف لبنها سـوى إطعامه امتنـع أن يحلبها أحد ، ولو أجدبـت أرض فضاقـت عن علـف البهيمـة وجب علـى المالك أن يبحث عن طعامها كما يبحث عن طعام أولاده .

٢- يحرم خصاء البهائم لما يلحقها من التعذيب ، ويحرم متابعة السـفر عليهـا دون أن ترتاح لأن لهـا حق الاسـتراحة والأمن ، كما يحـرم أن يتخـذ الحيـوان هدفًا للرمـي تعلمًا للصيـد ، ففي صحيح مسـلم أن ابن عمر مر بفتيان من قريش قد نصبوا طيرًا يرمونه فلما رأوه تفرقوا فسأل ابن عمر : من فعل هذا ؟ إن رسول الله ﷺ «لعن من اتخذ شيئًا فيه روح غرضًا» .

٣- لا يجـوز الحمل على مـا لم يخلق للحمـل كالبقرة والغزالة والجاموسـة ونحوهـا ، إنمـا ينتفع بما تطيقـه كأن تحـرث البقرة الأرض ، وقد أمر رسـول الله بقطع القلائد مـن أعناق الإبل مخافة أن تختنق الدابة بها عند شـدة الركض ، وكراهة أن تمر بشـجرة فتعلق بها فتخنقها وتعوقها في المسير .

٤- قـال أبو حنيفة : لو ضرب الراعي شـاة ففقأ عينها أو كسـر رجلها ضمن ، وكذلك لو سـاق الأجير المشـترك أغنامًا وصعد بها جبـلًا مرتفعًـا فتردت من موضـع يمكن الاحتراز منـه فإنه يضمن ، ولو اسـتعجل الحيوان للسـوق فنفرت بقرة فأصيبـت ضمن أيضًا ، والصور الفقهية في هذا النطاق أكثر من أن تحصى .

٩- أمثلة تاريخية:

نشـر الدكتـور زكي نجيب محمـود مقالًا ممتـازًا تحت عنوان : (نفـوس فقيرة) بالعـدد (٦٤٤) من مجلة الثقافـة تحدث فيه عن منظر هز شـعوره وملك عليه إحساسـه إذ نشـرت مجلـة إنجليزية

صورة لشـرطي أوقف حركة المـرور كي تعبر أوزة وأفراخها الطريق فـي مأمن، وقـد أعاد الدكتور نشـر الصـورة بالثقافة ليـرى القارئ العربـي نمطًـا إنسـانيًا يظنـه الدكتـور غريبًا عليـه، وأنـا أعلم أن المجلة الإنجليزية لم تنشـر هذه الصورة إلا لكونها غريبة في بابها تسـتدعي الانتباه، فلو كانت مما يتكرر في طرق لندن لكان نشرها غيـر ذي موضوع فمن يبلغ الدكتور الكبيـر أن لهذه الحادثة نظائر شـتى في كتب التاريخ الإسـلامي؛ بل إن في هـذه الكتب ما يفوقها أثرًا وروعة ولا أظن الأسـتاذ الكبير يجهل قصة عمرو بن العاص مع يمامة الفسـطاط حين أرجأ تقويض الخيام كيلا تنزعج الأم الضعيفة ذات الأفراخ الصغار، فأين هذا العمل الفذ الذي يعوق ارتحال جيش بأجمعـه مـن انتظار دقيقـة أو دقيقتين في ميدان عـام لتعبر أوزة مع أفراخها.

لا أنكـر أن عمل الشـرطي صنيع إنسـاني نبيل ولكـن أنكر ألا يكون لدينا أمثلة شتى من هذا الموقف النبيل نذكر منها:

١- جـاء في كتاب الأم للإمام الشـافعي أن عمر بن الخطاب قدم مكـة فدخل دار الندوة يوم الجمعة وألقى رداءه على جدار فيها فوقع عليـه طير من الحمام فأطاره الفاروق عن ثوبه، ووقع على جدار آخر كانت عليه حية فقتلته فتأثر عمر لما رأى وقال لأصحابه: ما أظن إلا أنني كنت السبب في مصرع الطائر؟ فماذا أصنع؟ فقيل له: تصدق بعنزة يا أمير المؤمنين فعجل بالتصدق وهو يرى نفسه مذنبًا بذنب لم يرتكبه.

٢- رحـل الإمام أحمـد بن حنبل إلـى محـدث وراء النهر يروي بعض الآثار النبوية فسـلم عليه فرد السـلام، ثم اشتغل بإطعام كلب

أسود حتى ظن أحمد أن الرجل لا يعبأ به، ومع ذلك فقد انتظر حتى فرغ المحدث من شأنه، وأقبل على أحمد يقول له: لعلك وجدت في نفسك إذ أقبلت على الكلب دونك، فقد حدثني أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من قطع رجاء من ارتجاه قطع الله رجاءه يوم القيامة» إن أرضنا هذه ليست بذات كلاب وقد قصدني هذا الكلب فخفت أن أقطع رجاءه، قال أحمد فرحًا: يكفي ما سمعت.

٣- انتشرت الأوقاف والحبوس على إطعام الحيوانات في وصايا الأثرياء من ذوي الرحمة من المسلمين، حتى كان نور الدين زنكي البطل المجاهد يتعهد إطعام الحيوانات بنفسه على رغم أعبائه الكبار، كذلك كان عدي بن حاتم يفت الخبز للنمل ويقول: ضعيفات لا يجدن القوت، أما أبو الدرداء -رضى الله عنه- فقد نظر إلى بعيره عند احتضاره وقال له يخاطبه -وكأنه إنسان عاقل- لا تخاصمني عند ربك فلم أكن أجيعك ولا أحملك ما لا تطيق.

١٠- في الشعر العربي:

من يقرأ موسوعة الحيوان للجاحظ يرى فيها شعرًا كثيرًا يدل على تعاطف الإنسان العربي جاهليًا وإسلاميًا مع الحيوان، فأكثر ما قيل في الناقة والحصان والكلب يدل على رقة حانية ملأت نفوس القائلين، ففاضت بأعذب المشاعر وأنبل الأحاسيس، ومراثي الحيوان أكثر من أن تحصر في الأدب القديم والأدب الحديث معًا، بل إن للحمام ديوانًا كبيرًا في الشعر العربي يتحدث عن نواحه وهديله، إذ يتصور الشاعر ما يسمع من هديل الحمام تصورًا يقع من نفسه أنبل موقع، والذئب هذا الحيوان الخبيث يجد من يتعاطف

معه فيقسم الزاد بينه وبين ضيفه ويداعبه قائلًا:

تعش فإن صاحبتني لا تخونني
نكن مثل من يا ذئب يصطحبان
ولو غيرنا نبهت تلتمس القرى
رماك بسهم أو شباة سنان

ولا أوجد للنفس وأشجى للقلب من تصوير الأبيوردي والشريف الرضي ومهيار؛ لتفجع الظباء على أطفالها حين يداهمها وحش مفترس مما يدل على أن العاطفة الإسلامية نحو الحيوان متأصلة متغلغلة، فإذا ذهب بعض الكتاب إلى غير ذلك فقد أخطأ الطريق كما توهم أستاذنا الكبير أحمد أمين.

حمامة زياد الأعجم:

أما تفصيل ذلك التوهم ففحواه أن الشاعر الأموي زياد الأعجم[٣] وفد على حبيب بن المهلب وهو بخراسان، فبينا هو وحبيب ذات ليلة يسمران إذ سمع زياد حمامة تغني على شجرة كانت في دار حبيب بن المهلب، فهاجت شاعريته ونظم من فوره:

تغني أنت في ذمتي وجاري
وذمة والدي إن لم تطاري
وبيتك أصلحيه ولا تخافي
على صغر مزغبة صغار
فإنك كلما غنيت صوتًا
ذكرت أحبتي وذكرت داري

(٣) لباب الآداب للأمير أسامة بن منقذ، ص٢٦٤، طبعة أولى، بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر.

فـــإمـــا يــقــتــلــوك طــلــبــت ثـــــأرًا
لــــه نــبـــأ لأنـــــك فـــــي جــــــواري

فأخذ حبيب بن المهلب سـهمًا فأنفذهـا فقال زياد : أي حبيب ، قتلـت جاري وبينـي وبينك المهلـب فاختصما إلـى المهلب فقال لابنـه : جار زيـاد لا يروع لقد لزمتك الدية ألـف دينار فقال حبيب : إنما كنت ألعب ، فقال المهلب : أبو أمامة لا يروع جاره ، ادفعها إليه فدفع إليه الألف وقال زياد عقب ذلك :

فـلـلـه عـيـنـا مـــن رأى كـقـضـيـة
قضى لـي بها شيخ الـعـراق المهلب
قــضــى ألـــف ديـــنـــار لــجـــار أجــرتــه
مـن الطير حضان على البيض ينعب
رمـــــاه حـبـيـب بـــن الـمـهـلـب رمـيـة
فـأنـفـده بـالـسـهـم والـشـمـس تغرب
فـــقـــال : زيـــــاد لا يـــــروع جـــاره
بـلـى جـــاره جـــاري ومـلـجـار أقـرب

فبلغـت القضية الحجـاج بن يوسـف الثقفي فقـال : ما أخطأت العرب حيث جعلت المهلب رجلها .

١١- تعليق صاحب فجر الإسلام ونقده:

ذكر الأستاذ أحمد أمين هذه الواقعة ، وعلق عليها بقوله :

«أفلسـت تـرى معي أن هذا الشـعور علـى هذا النحـو جديد لم أعرفه للعرب من قبل ، ولعل عليه مسحة مانوية من حماية الحيوان» ثم اسـتدرك –رحمه الله– فقال في الحاشـية : لسـت أعني الشـعور بحماية الحيوان لأنه في جواره ، إذ يظهر أن هذا كان عند العرب في

الجاهلية، ولكن أعني تجسيم هذا المعنى، حتى ليستعدي الوالي بطلب الدية.

وقد اتفق لي أن قرأت هذا الكلام في (فجر الإسلام) فأنكرته صامتًا، ثم وقع في يدي عدد من مجلة (رسالة الإسلام) ربيع الأول ١٣٦٩هـ فرأيت المغفور له الكاتب الغيور الأستاذ توفيق الفكيكي يفرد مقالا رائعًا لمناقشة الدكتور أحمد أمين، فيتحدث عن حقوق الحيوان في الإسلام بإفاضة وإشباع، وينقل عن العرب حمايتهم للحيوان في الجاهلية، مستشهدًا بناقة البسوس التي حماها جساس وقتلها كليب فقامت الحرب الضروس، ومتحدثًا عن ثور بن شحمة أحد أشراف العرب الذين يحمون الحيوان والطيور، فكان الطير لا يثار ولا يصاد بأرضه، ثم قال الأستاذ الفكيكي -رحمه الله- في ختام بحثه (ص٦٥) من المجلة:

«ترى هل كان كليب، وجساس، وثور بن شحمة، على مذهب المانوية لحمايتهم الحيوان، وهل كانت تعاليم الإسلام العالمية في رحمة البهائم وبيض الطيور، وكذلك وصايا الصحابة وأحكام الشريعة، ونظام الحسبة في الإسلام بشأن الرفق بالعجماوات، ترى هل كان ذلك كله مستمدًا من تعاليم المانوية؟ أليس من الأرجح أن نقول إن زيادًا الأعجم، ذلك الشاعر الإسلامي العربي المجاهد في سبيل الله، قد استمد خياله من التقاليد العربية الأصيلة، وتعاليم الشريعة المحمدية السمحة من قبل أن تشيع الفاحشة المانوية في الوسط الإسلامي بأجيال؟»

١٢- في النثر القصصي:

كما تعاطف الشعر العربي -جاهليه وإسلاميه- مع الحيوان فقد

تعاطف النثر العربي الإسلامي مع الحيوان تعاطفًا نطق بتغلغل روح الشفقة في النفس البشرية، ومن أبرز ما نشير إليه في هذا المجال قصة الإنسان والحيوان أمام محكمة الجن، إذ شاء قصاص أديب من إخوان الصفاء أن يعالج موضوع الرفق بالحيوان معالجة تبلغ أقصى ما يراد من التأثير، فطار به الخيال الأدبي إلى تصور الإنسان الأول في حياته البدائية، إذ كان يستوحش من السباع والكواسر والوحوش، فأخذ يأوي إلى المغارات والكهوف، ويصعد إلى رءوس الجبال متجنبًا شر هذه الآفات الفاتكة، ثم امتد به الزمن فمال إلى التحضر واستخدم الآلات الحديدية، فاستذل البقر والغنم والجمل من الأنعام والخيل والبغال والحمير من البهائم، وجعل يعبد هذه الحيوانات ويلجمها ويسرجها لتكون رهن إشارته، ثم اعتقلها في مجالس قراه بعد أن كانت مخلاة في البراري والآجام والغياض، وما تعذر صيده من هذه الأجناس شمر بنو آدم في طلبه، مستعينين عليه بإخوته من الخيول والبزاة والكلاب، حتى أصبح الحيوان من الإنسان في شر مستطير، وقد ولي أمر الجن ملك حكيم يصطنع العقل والمعرفة ففزعت إليه طوائف الحيوانات شاكية جور الإنسان، وقامت المرافعات والاتهامات وتعددت الجلسات، فأخذ كل حيوان يشكو ما وقع على جنسه من الأذى!

وهنا تتجلى عظمة القصاص الموهوب في براعة التقصي وبعد النظر وسلامة الاستنتاج، وكان بارعًا حين يجعل حيوانًا كالبغل يدفع رأي الإنس في قوة مقنعة، إذ أخذ زعيم الإنس يستدل على حق طائفته في تسخير الحيوان، بقول الله -عز وجل- :

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا

تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(النحل: ٥- ٨)

ذكر زعيم الإنس هذه الآيات الكريمة وأشباهها من كتاب الله مثل قوله -تعالى-:

﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾

(الزخرف: ١٣)

فقام أحد البغال يدفع الحجة بالحجة ويقول في وضوح كاشف: ليس في شيء مما قرأ هذا الإنسي من آيات القرآن أيها الملك دلالة على ما زعم أنهم أرباب ونحن عبيد لهم، إنما هي آيات تذكر بإنعام الله عليهم وإحسانه، فقال:

﴿ سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾

(الحج: ٣٧)

كما جاء ما يفيد أن الله قد سخر الشمس والقمر والسحاب والرياح لبني الإنسان، أفترى -أيها الملك- أن هذه الكائنات هي الأخرى عبيد للإنسان وهو ربها المتحكم القهار؟

وقد انتهت الخصومة الحادة بحكم معتدل أوضحه ملك الجن في قوله:

«الآن حصحص الحق فيا أيها الحيوانات أنتم أعوان الإنسان،

فأطيعوه ولا تعصوا له أمرًا، ويا بني آدم أنتم سادة الحيوان، فعاملوه بالرفق ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين».

وفي القصة إشارات دقيقة إلى معان عالية تقتبس مادتها من علوم النفس والاجتماع والأخلاق والتاريخ والتحليل التشريحي للأعضاء الحيوانية، والغرائز البشرية والحواس الظاهرة والمستترة والعواطف الراضية والغاضبة لتنتهي إلى تأكيد الرفق ووجوب الحنان.

١٣- إحساس النبات:

يبالغ بعض الشعراء حين يتجاوز الحيوان إلى النبات، وكأنه يريد أن يقنع القارئ بضرورة العطف على الكائنات جميعها ليكون الحيوان في طليعة من يختصون بالرفق والإحسان ولعل هذا ما عناه القائل(٤):

ارحم الغصن لا تنله بسوء
قد يحس النبات كالإنسان
واستمع للحفيف منه تجده
بات يشكو الإنسان للرحمن

(٤)) ديوان صدى الأيام: للدكتور محمد رجب البيومي.

العدل ظاهرة كونية

﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴾

(الرحمن : ٥- ٨)

ظاهرة كونية:

العدل سنة من سنن العالم الطبيعي، به سارت الكواكب في مجاريها، وعلى نظامه توقف مجرى الليل والنهار، فالشمس تجري لمستقر لها لا تتزحزح عنه، والقمر له منازل معلومة مرصودة:

﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾

(يس : ٤٠)

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴾

(الرحمن :٧، ٨)

لقد اكتشف الفلكيون بعد أن رصدوا الكواكب السيارة أن أبعادها بالنسبة إلى الشمس تسير على نظام عادل لا يختلف (٣-٦-١٢-٢٤-٤٨) وبالعدل الدقيق قامت حركة الكون في اطرادها المديد، كما أن الخلل الشاذ في بعض مظاهر الكون لا يكون إلا عقابًا على ترك العدل، لأن الظلم يمحق الحياة الإنسانية كما تمحق الزلازل والبراكين هدوء العالم الأرضي في وقت من الأوقات، وإذا كان الزلزال يرسل الحمم ويبعث الصواعق، فالظلم الحائد عن طريق العدل هو مدعاة هذه الأهاويل، لذلك كان الخسف والرجف والزلزال بعض العقاب الذي سلطه الله على الطغاة من الظالمين.

الظلم يدمر الكون:

وقصص الجبابرة من الطغاة في كتاب الله تنتهي دائمًا برجفة كونية تكون نتيجة لانهيار العدل في مجتمع هؤلاء البغاة، وقد عرضت سورة هود قصص البغاة ممن مردوا على الحق، وكانت كل قصة تنتهي بالخسف والمحق والغرق، فقد فار التنور وماج الماء مدرارًا من السماء وفوارًا من الأرض في قصة نوح، وأخذت عاد وثمود بالرجفة والصيحة، وأرسلت على قوم لوط حجارة من سجيل منضود، وأخذت الذين ظلموا من قوم شعيب الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، ثم قال الله -عز وجل- عقب هذه الأحداث:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ (هود: ١٠٠- ١٠٣)

وفي مثل هذا المعنى يقول الله -عز وجل-:

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾

(الحج: ٤٥)

فكأن العوامل الطبيعية التي تنزل الكوارث بالناس هي في كثير من أحوالها نتيجة منطقية للظلم القائم، وسبب من أسباب تغيب العدالة بين الناس، لذلك وضع الله الميزان بالقسط حين خلق السماوات والأرض، وجعل العدل مناط الاستقرار.

العدل اتجاه فطري:

وكما أن العدل ظاهرة كونية فهو أيضًا اتجاه فطري في النفس إذا سلمت من غواشي البيئة الفاسدة، وبرئت من سيطرة الغريزة الهابطة، فحين ترتكس النفوس في حمأة الضلال لا تطمئن اطمئنانًا كافيًا لشذوذها المنحرف، بل تضيق به وتحس كأنها بمنأى شاسع عن الطريق الصحيح إحساسًا يورثها لذع الألم، وبرح الندم مهما تظاهر المذنب بالتماسك والالتئام، إذ يشعر شعورًا داخليًا أنه يأتي بما لا يناسب إنسانيته من الآثام، ويتمنى لو أمكنه سريعًا أن يسدل ستارًا على مخازيه بأن تهيئ له الظروف ما ينجيه من انحداره نجاء خالصًا لا رجعة فيه، لأن صوت الفطرة في أعماقه يؤرقه، وقد يموت الضمير نهائيًا عند قلة قليلة، وهؤلاء شواذ لا تستقيم بهم قاعدة عامة.

ومن دلالة هذا الاتجاه الفطري في النفس أن صاحب الخلق المحمود إذا عدل في أهله ورعيته يشعر بالارتياح المغتبط في كل موقف من مواقف عدالته حتى ولو عادت عليه هذه العدالة المتحرزة ببعض الأضرار المادية أو المعنوية؛ لأنه يعرف أن الجزاء من جنس العمل، وأن الضرر الذي لحقه بإجراء العدالة ضرر ظاهري يخفي نفعًا كثيرًا له قبل أن يلحق النفع سواه:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾

(الزلزلة :٧، ٨)

خضوعًا للقانون الإلهي في الحياة وهو العدل، وحين قال الله -عز وجل-:

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ (الرحمن: ٥- ٧)

قد مهد –جل جلاله– لذلك كله بقوله:

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾

(الرحمن: ٣، ٤)

ومن علمه البيان لا يستطيع أن ينكر أن كل شيء يقوم في الحياة بميزان أي ميزان، فالبيان هو ثمرة الحكمة العاقلة ذات الوعي البصير.

عدالتان: خارجية وداخلية:

وعلماء الأخلاق حين يتحدثون عن العدالة يجعلونها عدالتين: عدالة داخلية وعدالة خارجية:

فالعدالة الداخلية:

هي مراعاة الالتزام الدقيق بقواعد النظام العادل في السلوك الإنساني بحيث لا تقوى ناحية ما فتسيطر على غيرها سيطرة تفقد المرء توازنه النفسي، أو تعظم غريزة هابطة فيسوء أثرها حين تسيطر على عاطفة شريفة فتمحقها، وتفصيل ذلك أن الإنسان يخضع لقوى عقلية وقوى شهوية، والقوة العقلية هي التي تحتل مكان القيادة فتوجه صاحبها إلى الطريق الصحيح، وتكبح جماح القوة الشهوية حين تميل إلى تجوز ما أحل الله من متاع، أو سلب ما يحوزه الغير من مال، وبمراعاة العدالة بين القوتين يحدث الانسجام النفسي لدى الإنسان، إذ يكون موفقًا في حياته فلا تعصف به نزوة هائجة، إلى عمل عدواني، أو انحطاط بهيمي؛ لأن العدالة الإلهية قد منحت الإنسان إدراكه البصير، ليسير في المحيط الزاخر آمنًا مهاب العواصف الهوج والزعازع الهائجة، فيصل إلى الشاطئ بسلام، وما يقوله الأخلاقيون قديمًا عن القوى العقلية والقوى الشهوية، يقوله علماء النفس حديثًا عن الإدراك والوجدان والنزوع

والمآل واحد، وإن اختلف الاصطلاح.

هذه هي العدالة الداخلية، وكثيرًا ما يغفلها المتحدثون عن العدالة مع أنها أصل من أصول الاستقرار الإنساني، وبتحقيقها يعيش المرء سعيدًا هانئًا، ولا شك أنها تتطلب جهادًا شاقًا، وكفاحًا مريرًا، لأن للغرائز سيطرتها الغاشمة إذا اتسع أمامها ميدان العبث دون كبح، فلا بد أن يعالج الإنسان توازنه النفسي ليوصد منافذ الشر فلا يندلع شررها على حياته، وللتربية الخلقية أثرها في السيطرة على النوازع الهابطة، وهي تربية لا بد أن تلزم الناشئ من مفتتح حياته ليسمو بنفسه مبدئيًا، فيظل بعيدًا عن جواذب الشرور، ودوافع الانحطاط.

العدالة الخارجية:

أما العدالة الخارجية: فهي التي تتجاوز التنظيم الداخلي للنفس إلى الاتصال الاجتماعي بين الناس، ولا شك أن كل إنسان حريص على ألا يضيع حقه، فهو يتطلع إلى استيفاء ثمرات جهوده، تطلعًا قد يدفعه إلى الطمع في ثمرات غيره، إذا فقد عنصر الحق في نفسه، إذ من الحق كل الحق ألا يجور إنسان على إنسان، حتى ولو كان في نهاية الحد الأقصى من عدالة المتربصين، فقد قال الله -تعالى-:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

(المائدة: ٨)

والنصوص القرآنية في هذا المجال كثيرة يعرفها الدارسون وعلينا أن نتفهم نفوسنا حين نصدر الحكم في تحديد العلائق بيننا وبين الناس، لأن الشيطان يعجز عن أن يدفع المسلم المتحرز دفعًا صريحًا للظلم، فيأتي إليه من باب التدليس، ليزين له الشر حين

يرسمه في صورة الخير، فيجعل من ميوله الذاتية في حب الاستئثار بالنفع ما يريه الباطل المحض في صورة الحق الصريح إذا لم يعتصم بالحجة الواضحة، دافعًا تطلعات الهوى المغرض. ومن هنا قال الله -عز وجل- مخاطبًا نبيه داود -عليه السلام-:

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾

(ص: ٢٦)

وداود نبي ذو خلق وعقل وإيمان وقد حذره الله من الهوى، فتحذير غير الأنبياء أوجب وألزم.

وإذا كنا نستعرض نوازع الشر في النفوس، فلا نظلم الحق حين نقول: إن في بعض النفوس كرائم نفيسة يدفعها التسامح الحميد إلى التنازل عن بعض الحقوق العادلة حبًا في الرحمة المطلقة، فهي ترضى بالعدالة عند التخاصم، فإذا تحقق لها ما تريد تنازلت عن حقها الصريح استجابة لقول الله:

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

(الشورى: ٤٣)

ولن يرتفع الإنسان إلى الرحمة الغافرة إلا إذا تأصلت أخلاق القرآن الكريم في نفسه بحيث أصبح لا يستطيع عن المثل الأعلى صبرًا واحتمالا، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم.

العدل في العدل:

يقول الأستاذ إبراهيم الجبالي -رحمه الله-: «إذا نظرت إلى المعاملات وجدت قانون العدل محكمًا، وطريق الإنصاف محتمًا، لأن الإسلام قد عدل في العدل، نعم لقد عدل حتى في العدل، لأنه

لــم يحتم على صاحــب الحق أن يأخذ بالعدل، كمــا لم يحرمه حقه مــن العــدل، وإنما قال له: لك الحق في أن تســتوفي حقك بالعدل، ولكني مع ذلك أرغبك في الإحسان فما أشبه الإتيان بالإحسان بعد العدل أن يكون اعتدالا في تقرير العدل».

وكأن الأستاذ الجبالي ينظر إلى قول الله -عز وجل-:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾

(النحل: ٩٠)

فيجــد العدل هــو الميــزان الطبيعــي للمصالــح العامــة، ويرى الإحســان في العدل منزلة مستثناة للخاصة، وهي التي تجاوز العدل إلــى العفــو وهو الإحســان، وإذا كان من علماء الأخــلاق في الغرب مــن جعل الإحســان في العدل دون تجاوز فإن هــذا الأخلاقي الكبير لم يحط خبرًا بكل النفوس، إذ إن من البشــر من تســمو نفســه إلى التسامح متنازلا عن حقه العادل، وقد رأينا من كرام الناس من يبكي لمآسي أعدائه، ويود أن لو هادنتهم الأوصاب، ومن يتنازل مشكورًا عــن حقه العادل في ســاحة القضــاء رغبة في ثواب الله يــوم الجزاء، وتجاوز العدل إلى الرحمة ســمو نفســي دعا إليه الإسلام مخيرًا بين الحسن والأحسن، والفاضل والأفضل، وتلك عليا مراتب الفضلاء.



حرية التفكير في الإسلام

دعـا القرآن الكريم إلى التأمل الفكري بآياته الواضحة ونصوصه الصريحـة، وقد ظهـرت نتائج هذا التأمل عمليًـا فيما أحدثه علماء المسـلمين شرقًا وغربًا من معجزات علمية شهد بها المنصفون من رجال الغرب، ولم تكن هذه الدلائل السـاطعة -بعد كثرة الكتابات عنها في العصـر الراهن- مانعة ذوي الإرجاف من لغوهم الباطل، إذ عكف أشـباه المبشرين من الدارسين على طمس الحقائق الصريحة بأراجيـف كاذبة تنتحل لها الأسـباب الموهومـة من كل طريق حتى غـلا صاحب كتـاب (الوجيز في تاريخ الفلسـفة) وهو مفكر طنان الذكر، فزعم أن تقهقر المسـلمين في المضمار الفلسفي يرجع إلى كتابهـم المقـدس الذي يتعارض مـع النظر الحر للعقل المسـتقل، وهـو زعم تدحضه النصوص الصريحـة التي حفل بها القرآن الكريم ووعتهـا السـنة المطهرة، وقـد أصبحت من الاشـتهار بحيث تجبه هؤلاء المتخرصين جبهًا يقذف بهم بعيدًا عن منطقة البحث النزيه، ولا نـرى مانعًا من أن نكر على بعـض اتجاهاتهم المجحفة بالتفنيد الباتر لينسجم القول على وجه صريح.

● وأوضـح مـا يروعك مـن هـذه الاتجاهات هو تصيـد حوادث تاريخيـة يشـم مـن ظاهرهـا التضييـق على حريـة البحـث، فنجد أصحابها ينشـطون في حـرص دائب على جمعها، ثـم تأويلها كما يشـاءون، وأقـوى ما يسـتدلون به في ذلـك ما روي مـن أن (صبيع بـن عسـل الحنظلي) قـدم إلى المدينـة في عهد عمر بـن الخطاب -رضي الله عنه- فجعل يسـأل عن متشـابه القرآن فأرسـل إليه عمر فضربه حتى أدمى رأسـه، ثم نفاه إلى البصرة وأمر بعدم مجالسـته، وفـي رواية أنه حرمه من عطائه حتى صلـح حاله، ورجع عن البحث

فــي مشــكلات القرآن، وقيل: إنــه كان يتنقل في أجناد المســلمين وأمصارهم ســائلا عن المشكلات والمتشابهات فنفاه عمر وأمر ألا يجالس حتى يصلح أمره.

كما يســتدلون بما حكاه عمرو بن شــعيب عن عمرو بن العاص وأخيه هشــام أنهما قالا: جلســنا مجلسًا في عهد رسول الله ﷺ كنا به أشــد اغتباطًا من أي مجلس جلســناه يومًــا: «جئنا فإذا أناس عند حجر رســول الله ﷺ يتراجعون في القرآن، فلما رأيناهم اعتزلناهم، ورســول الله خلف الحجر يسمع كلامهم فخرج علينا رسول الله ﷺ مغضبًــا يعرف الغضب في وجهه حتى وقــف عليهم فقال: أي قوم، بهــذا ضلت الأمم مــن قبلكم باختلافهــم على أنبيائهــم، وضربهم الكتــاب بعضــه ببعض، إن القــرآن لم ينزل لتضربــوا بعضه بعضًا، ولكن يصدق بعضه بعضًا فما عرفتم فاعملوا به، وما تشابه عليكم فآمنــوا به ثم التفت إلــيَّ وإلى أخي فغبطنا أنفســنا ألا يكون قد رآنا معهم».

والناظــر في هاتين الحادثتين بعين الإنصــاف لا يرى في إحداها ذرة تشي بالتضييق على حرية البحث النزيه بسبب؛ لأن الرجل كان يبحث عن المشكل ثم يذهب ليسأل عنه من لا يدري شيئًا من أمره فيحدث من التشــكيك والبلبلة ما يجب الحســم في القضاء عليه، ولــو أن صبيغًــا قد تلجلج في صدره شــيء من المتشــابه فأتى أمثال علــي بــن أبي طالب، و عبــد الله بن عباس، وعمر بــن الخطاب، من كبار العلماء في عصره فناقشــهم الرأي وطالبهم التفســير، ما وقف أحد أمام ســؤاله، ولرأوا فيه رجلا طلعة يســعى إلى تأويل المختلف وإزالة الريــب، بتفصيل المجمل، وإيضــاح الغامض، ولكن الرجل كان يتنقــل بيــن العامة لينقل نصوصًا مبتورة توهم بما يشــكل، ثم

يترك الناس حائرين ليلقى سواهم في الأمصار المختلفة فيذيع إليهم ما يشكل ويعضل، وحين بلغ أمره ابن الخطاب لم يؤاخذه بعقاب صارم، بل رأى أن يدرأ خطره عن الناس فنفاه عن حرم رسول الله ﷺ إلى البصرة، وأمر بعدم مجالسته حتى تتاح له الفرصة بينه وبين نفسه ليفكر في صنيعه، ويعلم أنه يثير الفتن لدى من لا يستطيعون النظر الدقيق، وكأن الله -عز وجل- قد هداه إلى الخير فاستراح من شكوكه وصلح أمره وخالط الناس على أمن واعتقاد!

أما ما رواه عمرو بن العاص وأخوه هشام من حديث رسول الله فلا أدري موضع التضييق فيه، إذ إن رسول الله قد استمع لنفر يفسرون القرآن على غير وجهه فخرج مغضبًا يعرف الغضب في وجهه الشريف، وأي فرد عادي لا يغضب حين يسمع كلامًا يدرك خطأه الشنيع، ويعلم أنه بعيد كل البعد عن الصواب؟ فإذا كان هذا الخطأ مما يتعمد نصوص كتاب الله فإن الغضب ليشتد وإن السخط ليعنف؟ فإذا كان السامع لهذا الغلط رسول الله وقد جاء بالحق الصريح وعرف فساد ما يخوض فيه بعض الخائضين، فإن الغضب أقل ما يتصور أن يحكم به عليه في شدة غيرته على الحقائق الإسلامية؟

أفكان هؤلاء ينتظرون من رسول الله أن يسمع القوم يضربون الكتاب بعضه ببعض فيأخذون نصًا مبتورًا من آية؛ ليقفوا به أمام نص مبتور من آية أخرى، وليقولوا قد اشتبه علينا الأمر ووقع في كلام الله من التناقض ما لا يهدي إلى صواب؟ أكان هؤلاء ينتظرون من رسول الله أن يخرج لهؤلاء القوم هاشًا باشًا منطلق الأسارير يشجعهم على ما يرجفون؟ أم كانوا ينتظرون منه أن يغضب لحق يُخفى وباطل يعلن، ثم ماذا فعل الرسول بعد ما سمع؟ أأمر باعتقال

القائليــن ؟ أدعا إلــى حربهم ونفيهم عن حظيرة الإســلام حتى يقال إنــه ضيق مــن حريــة البحث ، ووقــف أمام ســلطان العقــل ؟ كل ما فعلــه رســول الله أن قال في تؤدة : أي قوم : بهــذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهــم ، إن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ولكــن يصــدق بعضه بعضًا ، فمــا عرفتم منه فاعملوا به وما تشــابه عليكم فآمنوا به ؟ أيكون في ذلك تضييق على حرية البحث ، ودعوة إلــى عدم التــدارس العلمي ، وقد شــرق وغرب قولــه ﷺ في تحبيذ هذه الدراســة البصيرة : «ما اجتمع قوم على كتاب الله يتدارسونه إلا حفتهــم الملائكة وذكرهــم الله في ملأ عنده» إلى عشــرات من هذه الأقوال يعرفها القريب والبعيد ؟

ثم إن المسألة ليست من الخفاء بحيث نتصيد حادثة أو حادثتين لنفسرها كما نريد ، فإن الدعوة إلى التفكير الحر في الإسلام ليست ممــا نص عليه فــي آية أو آيتيــن ، بل توالت النصوص حتى شــملت أكثر الســور في بســط وإســهاب ، وقد لاحظ بعض دارســي الأديان أن النصــوص القرآنيــة الخاصة بالدعوة إلى التفكير المســتقل تأتي واضحة ، فهي غرض مقصود واضح قامت عليه الشــواهد المتعددة ، أما كتب الأديــان الأخرى فقد جاءت الدعوة إلى التفكير فيها كأمر جانبي لا يقوم على رأســه مناديًا باســتقلاله ، بل إن بعض المقارنين يــرون فــي هذه الكتــب كثيرًا مما يعلــن الزراية بالعقــل ويدعو إلى انتقــاص قيمتــه التقديريــة ، محــذرًا من ســلطانه الذي يكــون مزلة الإنــكار في كثير من المواقف ، وما رأينــا نصًا قرآنيًا يهمل أو يحذر بعــض التحذير من حرية التفكيــر تلميحًا أو تصريحًا ، بل تضافرت النصوص بما لا مزيد عليه تدعو إلى نشاط البحث وحرية التفكير ، إلــى أن صــار ذلك مذهبًا واضحًــا من مذاهب الإســلام ؟ وماذا نقول

فـي دين ينص فقهاؤه على أن إيمـان المقلد غير مقبول ؛ إذا أمكنته القـدرة علـى التفكير ، فاحتقرها واكتفى بالتقليـد ؟ ثم ما نقول في ديـن يدعو إلى الاجتهـاد ، ويعلن أن من اجتهد فأصـاب فله أجران ، ومن اجتهـد فأخطأ فله أجر ؟ لأن فاطر السـماوات والأرض يعلم أن الخطأ طريق الصواب .

ولنسـرد –على سـبيل المثال– هذه النصـوص القرآنية الداعية إلى النظر المسـتقبل لترن مع سابقتها في آذان من يستمعون القول فيفكرون :

١- ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

(يونس : ١٠١)

٢- ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

(الرعد : ١٩)

٣- ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾

(محمد : ٢٤)

٤-﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

(الزمر : ١٧ ، ١٨)

٥-﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾

(العنكبوت : ٤٣)

٦- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

(يونس: ٥)

ولكن الذين في قلوبهم مرض يتركون هذه النصوص، ليئولوا حادثتي صبيع وعمرو بن العاص كما يشاءون!

هذا بعض ما يقال عن تصيد ما يشم من الأحداث التاريخية لتأويله على غير وجهه، نعقبه بما دأب عليه بعض المغرضين من التنديد بمن يحرم دراسة المنطق من فقهاء العصور المتأخرة، وأقوى ما يستعصمون به في ذلك فتوى ابن الصلاح حين وجه إليه هذا السؤال:

«ما حكم الاشتغال بالمنطق والفلسفة تعلمًا وتعليمًا، هل أباحه واستباحه الصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون والسلف الصالحون؟ هل يجوز استخدام الاصطلاحات المنطقية؟ وما الواجب على من تلبس بتعليمه وتعلمه متظاهرًا بها؟ وما الذي يجب على سلطان الوقت في أمره؟ وإذا وجد في بعض البلاد شخص من أهل الفلسفة معروف بتعليمها وإقرائها والتصنيف ففيها، فهل يجب على سلطان البلد عزله وكفاية الناس شره؟»

وواضح أن الذي وجه السؤال إنسان يضيق بالمنطق لقصور ذاتي يمنعه الوصول إلى صواب براهينه واستقامة حدوده، فاختار من رجال الإفتاء من يشاركه هذا الضيق ليشفي حاجة في نفسه، وابن الصلاح رجل حديث وفقه، وهو إمام في العلوم النقلية لا محالة، ولكن أمرًا ما عاقه عن العلوم العقلية، فلم يشأ أن يشارك فيها، ونحن لا نصدق ما قيل أنه سعى إلى تعلمها فلم يجد السبيل فحين

وجه إليه السؤال أجاب : «بأن المنطق مدخل الفلسفة، ومدخل الشر شر، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشارع ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والسلف الصالحين وسائر من يقتدى بهم، وأن استخدام الاصطلاحات المنطقية في مباحث الأحكام الشرعية يعد من المنكرات المستبشعة والرقاعات المستحدثة، وليس بالأحكام الشرعية افتقارا إلى المنطق أصلا وما يزعمه المنطقي بالمنطق من أمر الحد والبرهان فقاقيع قد أغنى عنهما الله كل صحيح الذهن لاسيما من خدم العلوم الشرعية، ولقد تمت الشريعة وعلومها وخاض بحر الحقائق والدقائق علماؤها حيث لا منطق ولا فلسفة ولا فلاسفة، ومن زعم أنه يشتغل بالمنطق والفلسفة لفائدة يزعمها فقد خدعه الشيطان».

هذا لباب الفتوى، وحين نتلمس الأسباب التي دعت الفقيه الكبير إلى الجهر بها في صراحة سافرة، نجد أن شيوع المصطلحات اليونانية وتدسسها إلى كتب الأصول والفقه والكلام على نحو غامض لا يؤذن بوضوح، قد جعل كتب الشريعة عند نفر من دارسي المنطق تأخذ غير طابعها الإسلامي في كثرة اللجاج وطول المماحكات والوقوف عند الألفاظ، ومناقشة الحدود والتعريفات، حتى كثرت اللجاجة من جرائها واستطاعت أن تنحي نصوص الكتاب والسنة قليلا أو تميل ببعضها إلى ما تريد، وقارئ الكتب الإسلامية إذ ذاك لا يكاد يهتدي إلى بغيته خالصًا دون عقبات تئوده، فاندفع أمثال ابن الصلاح إلى تحريم الاشتغال بالمنطق، سدًا للذرائع واتقاء للفرقة التي تبلبل الأذهان وتفسد القلوب وتجر إلى مشكلات أهل الفضول، ولا نجد أوفى من حديث الأستاذ العقاد عن ذلك في كتابه (التفكير فريضة إسلامية) ص ٣٢ حيث يقول:

وكان دخول مصطلحات اليونان على أيدي أناس يجهلون العربية ويعجزون عن فهم ألفاظ القرآن ومعانيه بابًا آخر من أبواب الخلط والغلط في تطبيق البرهان والقياس، فمن كان من أصحاب المنطق أهلًا لمعرفته وفهم وجوهه لم يكن أهلا لتطبيقها على معاني القرآن وعبارته لجهله بذوق اللغة وأسرار بلاغتها، ومن كان يعرف اللغة لم يكن من ذوي المعرفة بالبرهان والقياس، وشر من هؤلاء من يجهلون اللغة كما يجهلون المنطق ثم يهرفون بما لا يعرفون.

وكل ما ورد من علماء الإسلام الذين حرموا الجدل فإنما ينصرف إلى منع هذه اللجاجة التي لمسوا شرها، وتحققوا من جريرتها، ولم يلمسوا فيها منفعة تتحقق بالجدل ولا تتحقق بغيره، فما يغير قومًا من الأقوام خطب أفدح عليهم من اشتغالهم بالجدل وتركهم العمل، كما قال الإمام الأوزاعي وأسلم المواقف عند ذوي البصر بالدين إذا احتدم الخصام وشاع المراء والاتهام، أن يصاب المرء ولا يصيب، وأن يتجنب الخصومة أو يتجنب فيها كل قول مريب.

وعلى كثرة الفقهاء الذين عرضوا لهذا الموضوع لا تجد واحدًا منهم قصد بالمنع أو التحريم شيئًا غير هذا الجدل العقام الذي يمزق وحدة الجماعة ويصرف العقل عن الفهم ويأتي إلى المعنى الواضح فيغمضه، ولا يتفق له يومًا أن يأتي إلى الغامض فيجلوه ويقربه لمن خفي عليه، فهم في الواقع إنما ينقذون العقل من ضلالة تغشاه فتحجب عنه الحقيقة، ويعيذونه أن يخبط في النهار المبين خبط عشواء.

هذا كلام العقاد! وهو في موضعه مكان الإقناع والالتزام.

فإذا تركنا تصيد الأحداث التاريخية، وفتوى بعض الفقهاء بتحريم الدراسة الجدلية فإننا نجد لدى هؤلاء المرجفين شبهة ثالثة

تحـاك فيما ادعوه من التعليل الكاذب لانحدار العالم الإِسـلامي في عصوره الأخيرة، إذ حاولوا أن يرجعوا بجمود المسلمين وتقهقرهم الحضـاري إلى جمود دينهـم، وقصور تعاليمه عـن الوفاء بمطالب الحضـارة المزدهرة، لأنه في زعمهم دين بـدوي لا يواكب المدنية في ركبهـا الصاعد، فلم تكن تعاليم الإِسـلام مدعـاة الجمود لأنها تعـوق الفكر عـن الانطلاق، بـل كان البعد عن تعاليم الإِسـلام هو كارثة الكوارث، في انحدار المسلمين.

ثم ماذا كان العالم الأوروبي قبل الإِسـلام، لقد تسـرب الضعف إلى الإِمبراطورية الرومانية شـيئًا فشـيئا حتى لفظت أو كادت تلفظ أنفاسـها قبل القرن السـادس الميـلادي، إذ سـيطرت قبائل القوط والوندال والهون والمغول والسكسونيين على أجزائها، وهي قبائل فـي الدرك الأدنـى من الهمجيـة والجهل والتوحش ظلت مسـيطرة على أوروبا قرونًا عدة، حيث كانت إلى ما بعد القرن العاشر تمتلئ بالغابـات المخيفـة التي تسـكنها الوحـوش وتنقض منها كواسـر الطيور، وكانت الحالة الاجتماعية موضع الرثاء والشفقة لدى أناس يبنـون في باريـس ولندن بيوتهم من الطين والخشـب دون منافذ أو سـرر أو بسط، وكانت الحجرة الواحدة، هي كل ما للعائلة الكبيرة بحيواناتها وطيورها، وقد سـاد الجهل سيادة جعلت المرض يفتك بالمئين دون راحم، وكانت زيارة الأماكن المقدسـة هي وحدها باب الشفاء من المرض، فإِذا دهمت بلدة بوباء، أو أسرة بمريض فالوسيلة لإِنقاذه هي دعوات الكهنة، وأحجبة الدجالين من المشعوذين.

أما الشـرق فقد استضاء بنور الإِسـلام ليبني المدن الزاهرة ذات الحضـارة الراسـخة والتاريـخ الحفيل، وحيـن ازدهـرت الحضارة العباسـية في بلاط الرشـيد والمأمون والمعتصم، وترجمت العلوم

إلى لغة العرب فأصبحت أحد الروافد الدافئة في محيط الفكر الإسلامي كانت الكنيسة الأوروبية تطارد كل مفكر يشذ عن اتجاهها في رأي، وتتعقب العلماء والفلاسفة تعقبًا ينذر بالإبادة والاستئصال، وكانت المدارس الزاهرة تمتلئ بعلمائها في البصرة والكوفة وبغداد وقرطبة، والقاهرة، حتى بلغت مدارس قرطبة في عهد الحكم بن عبد الرحمن الأموي سبعًا وعشرين مدرسة، وقد اعترف المستشرق الشهير (دوزي) بأنه لم يكن في الأندلس أمي واحد يوم كان التعليم في أوروبا حجرًا على الطبقة العليا من القسوس.

وقد نبغ في المدارس الإسلامية شرقًا وغربًا من يعتز بهم التاريخ في سجل العلماء والمفكرين، حتى استيقظت أوروبا من نومها العميق على ترانيم الأندلس في الغرب وأضواء المعرفة في الشرق، ولا نطيل في إحصائيات علماء الإسلام من نوابغ الرياضة والفلك والطب والكيمياء والطبيعة، فذلك مما يضطر أكثر المتعصبين بعدًا عن الحق إلى الاعتراف به في مجال التطور التاريخي للعلوم، فإذا كان الإسلام قد رفع وحده لواء الحضارة الإنسانية عدة قرون، وكانت عصور المأمون ببغداد، والمعز بالقاهرة، والناصر بالأندلس هي وحدها عصور العلم في الكرة الأرضية، فكيف يكون هذا الدين داعية التخلف لأبنائه في عصور الانحطاط؟!

إن المنطق السليم يقضي بأن التخلف الطارئ على الأمة الإسلامية لم يكن إلا بمجافاتها تعاليم هذا الدين الراشد، فقد فتح لها طريق الفكر إلى أبعد مدى يستطاع، ولكن أعداءها الداخليين والخارجيين قد قعدوا لها كل مرصد، فسدوا منافذ النور على أهله، فعمهم الظلام، وأصبحوا بحيث تتقاذفهم التهم الباطلة من كل

صوب فلا يجدون النصير، ولا نريد أن نستشهد بأقوال مؤرخي الإسلام في هذا الصدد، فقد يتهمهم المغرضون عن كراهية، ولكننا نستشهد بكتب المنصفين من أساطين الغرب، ونحيل إلى مرجع ذائع مشتهر هو حضارة العرب لجوستاف لوبون، إن خفي عن بعض الناس ما كتب أوليري و .هـ.ج ويلز، وواجين يونغ، وسيد يوونو برجر، وغيرهم من الأساطين.

تلك هي أهم الشبه التي يرجف بها المغرضون بغيًا دون حق، وقد عرف القارئ المنصف مقدار بعدها عن الحق بما نطقت به البراهين الصحيحة.

ونحن بعد هذا العرض السريع نجدنا مطمئنين أوفق الاطمئنان حين نقرر أن التفكير الديني في الإسلام قد جرى إلى أبعد أشواط الحرية العقلية بحثًا واستنباطًا وتجربة، وقد خدم الإنسانية بما أثمر من حضارة وأدى من اكتشاف، وما زال التفكير الديني في ظل الإسلام الصحيح مدعاة حرية مكتملة واستقلال نزيه.

الإسلام والفروق الجنسية

يقول المستشـرق الإنجليزي الكبير (مسـتر جـب) في كتابه (حيثما يكون الإسلام):

«ولكن الإســلام ما زال في قدرته أن يقدم للإنسانية خدمة سامية جليلـة، فليـس هناك أية هيئة سـواه يمكـن أن تنجح نجاحًـا باهرًا فـي تأليف الأجناس المتنافرة في جبهة واحدة أساسـها المسـاواة، فالجامعة الإسلامية العظمى في أفريقيا والهند وأندونيسيا، بل تلك الجامعـة الصغيرة في الصيـن، وتلك الجامعة الضئيلـة في اليابان، لتبيـن كلهـا أن الإســلام ما زالت لـه القدرة التي تسـيطر كلية على أمثال هـذه العناصر المختلفة الأجناس والطبقـات، فإذا ما وضعت منازعات دول الشـرق والغـرب العظمى موضع الـدرس، فلا بد من الالتجاء إلى الإسلام لحسم النزاع».

وكلام المســتر (جب) واضح لا لبس فيه، فهو يعلن في صراحة أن مبدأ الإســلام في المســاواة هـو الحل الأوحد الـذي يقضي على التنافر المتطاحن بين الأجناس والشعوب، وأنه وحده لا سواه الذي يســتطيع أن يقدم للإنســانية خدمة ســامية جليلة، إذ ينظر إلى بني الإنسان نظرة واحدة لا يختلف فيها بعيد عن قريب.

والمدهش حقًا في منهج الإسلام أنه صاحب القانون الأوحد الذي جاهـر في أعظم أيام ازدهاره بأن الناس سواسـية كأسـنان المشـط، وأنه لا فضــل لعربي على أعجمي إلا بتقوى الله، وأن كل الناس لآدم وآدم مـن تـراب، مع أن الذي يتتبع آراء الدول المتغلبة قبل الإســلام وبعده في إبان رقيها الثقافي أو السياســي يجد كل شعب يخلع على جنسه من عوامل التفوق، وطهارة السلالة ونقاء المعدن ما لا يمكن أن يخلص لسـواه من الأجناس، حاشـا الإســلام فقد جاء ليقدم بلالا

وصهيبًا وسلمان على صناديد العرب من أمثال أبي سفيان.

لقد ازدهرت الثقافة الإغريقية ازدهارًا صار حديث الأجيال المتغنية بفلسفتهم وآدابهم حتى عزي إليها فضل النهضة العلمية الأوروبية، ولكن أصحاب هذا الارتقاء الفكري قد نظروا إلى أنفسهم بقداسة وتعاظم، فأعلنوا أن ما عداهم من الشعوب بربري متوحش، وجاء أفلاطون ليقسم الناس في جمهوريته إلى طبقات من السادة والعبيد، فيختص بالسيادة والحكم أناسًا وبالخدمة والاستعباد آخرين، ثم تابعه أرسطو في كتاب السياسة فأعلن في قسوة أن للإغريقي على المتوحش حق الإمرة، وأن العبيد إذا عوملوا بالرفق صاروا سفلة وقحاء، وأن الآسيويين يطيقون استبداد الحاكم وجبروته، أما الإغريقيون فأحرار أباة، وأن شعوب الأرض الباردة أقل ذكاء وأكثر شجاعة من غيرهم وأن اليونانيين أفضل الناس على الإطلاق، وقد اشتهر كتاب أرسطو في السياسة، وتناقل أكثر العلماء آراءه كحق صريح لا يقبل التأويل.

ثم دار الزمان فتألقت السيطرة الرومانية وخبا مشعل الإغريق إلى أمد ما، فأخذ الرومانيون يدّعون أن كل من لا ينتمي إلى الإمبراطورية بربري متوحش وأنهم وحدهم أصحاب السمو والارتقاء، وأن جيرانهم الأدنين من الجرمان والصقلب والكلت أجناس منحطة متقهقرة! وقد نسي الإغريق والرومان معًا أن الحضارة الأولى في طريق الإنسانية كانت شرقية لا غربية، وأن مبادئ الفلسفة نمت على ضفاف النيل، وأن الحروف الأبجدية لديهم مستوردة من لبنان وسوريا أيام الفينيقيين ولكن الحق شيء والغطرسة الكاذبة شيء آخر عند أولئك وهؤلاء.

فلما أشرق نور الإسلام كان مبدؤه الإنساني الأوحد هو المساواة،

وكان تطبيــق عمر لهذا المبــدأ المثالي في عصر القوة الباهرة عجبًا من العجب، فقد تداعت دولة الفرس تحت معاول العرب، وترنحت إمبراطورية الروم بقوة الإسلام، ووقف أمير المؤمنين في أوج عظمته وباهر قوته ليطبق المســاواة، مهتديا بكتاب الله ومتبعًا نهج رسوله الكريم.

لقد جهر الرســول الأعظم بتقرير حق المســاواة في حجة الوداع حيــن قال في خطبته الرائعة: «أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحــد، كلكم لآدم وآدم مــن تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيــض علــى أحمر، فضــل إلا بالتقــوى، ألا هل بلغــت، اللهم فاشــهد» ورأى عمر شــيخًا ضريرًا يســأل على باب، فســأل، فعلم أنــه يهودي، فقــال له: ما ألجأك إلى ما أرى؟ قــال: الجزية والحاجة والســن، فأخــذ عمــر بيده وذهب بــه إلى منزلــه فأعطاه مــا يكفيه ســاعتها، وأرســل إلى خازن بيت المال: «انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخزيه عند الهرم».

وحضــر ببابــه جماعة من أشــراف قريش منهم ســهيل بن عمرو بن عبد شــمس خطيب قريش، وعيينة بــن حصن رئيس فزارة، وأبو ســفيان بن حرب زعيم قريش، ومعهم نفر من العبيد والموالي ممن شــهدوا بدرًا، فطلبوا الإذن، فخرج الآذن يدعو بلالا فعمارًا فصهيبًا فســلمان، وترك السادة، فغضب أبو سفيان وقال: لم أر ذلا كاليوم، يــؤذن للعبيد ونتــرك، ليخيل إلى أن حجارة الجلهتين لو اســتأذنت لتقدمــت، فقال ســهيل في أنــاة: لِمَ تتمعر وجوهكم يــا قوم؟ دعوا ودعينا، فأسرعوا وأبطأنا، ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم في الجنة أكثر.

هـذه مبادئ الإسـلام ضاءل مـن تأثيرها النفـاذ أن انحرف عنها خلفـاء بني أميـة حين تعصبوا للعـرب ظالمين ؛ فسـمحوا لغيرهم أن يناصبهـم العـداء ثم ظهرت الشـعوبية البغيضة فنشـأ صراع آثم ينأى عن الإسـلام ويرتد إلى دعوى الجاهلية في التفاخر بالأحساب والأنسـاب وكانت كارثة تحملها الإسـلام مظلومًا إذ حاد عن هديه تابعوه ثم حصحص الحق بعد لأي فعرف المسلمون نهجهم القويم واعتنقوا المسـاواة النزيهة مبدأ ينبع مـن قرآنهم الكريم لا بضاعة مسـتوردة مـن الثورة الفرنسـية كمـا يزعم بعض من يجهـل تعاليم دينه، مؤثرًا أن يكون ذيلًا لأعدائه لا رأسًا في ذويه !

لقـد نادت الثورة الفرنسـية بمبادئ الحرية والمسـاواة والإخاء لتظـل حجـرًا محجورًا علـى الأوروبيـين دون الشـرقيين، فالحرية للغرب وحده، أما دول الشرق فلها الاستعباد والذل والاحتلال وقد شاعت في أوروبا الحديثة نظرية الفروق الجنسية...

وسـنلم الآن بخلاصـة موجزة لنظريـة الفروق الجنسـية ومدى تأثيرها السيئ في العالم الإنساني، ولعل من بعض كوارثها الدامية أن أشـعلت حربين عالميتين تقهقرت بهما الحضارة إلى الوراء كثيرا، وصحبتهما اللعنات السـوداء من أفواه الثواكل والأيامى والأيتام، إذ حصدت ملايين الأرواح وتداعت آلاف المنازل والقصور.

لقد نادى الكونت دي غوبينو الفرنسـي في القرن التاسـع عشر بنظريـة الأجنـاس البشـرية، فجاهر بـأن تطور تاريخ الشـعوب هو تطور العرق ذاته وأن الأمم ذات البشـرة البيضاء هي السـباقة دائمًا في مضمار الرقـي وزاد فجعل الجنس الأبيض متفاوتًا وفق نقاء الدم فمنـه الأمثـل الأعلى، ومنه ما دونه في السـمو والارتقاء إلا أنه على نقاوته فوق الأجناس جميعًا، وقد فلسـفت نظريته فلسـفة منطقية

ونســتطيع أن نفهم خلاصتها مما نشــره الأستاذ ماجد بهجت عنها بمجلة الرسالة العدد ٦٦٩ - ٢٩ أبريل سنة ١٩٤٦م حيث قال في بسطها:

إن المخلوقــات من حيوان ونبات وجمــاد تخضع لقانون طبيعي أزلــي يميز بعضها عن بعــض، فهناك فصيلة خير من فصيلة وعنصر خيــر من عنصــر وبطون خير من بطون، ففي الحيــوان ترى الخيول العربيــة أفضل من غيرها، وفي النبات تــرى الورد الجوري له رائحة زكيــة هي أعبق وأشــهى من غيرها، وفي الجمــاد تجد للفولاذ متانة تفــل الحديد، كذلك الإنســان -وهــو من عنصر الحيــوان- لبعضه تفوق على غيره.

وهذا الإنســان المتفوق إنســانًا أعلى ويكثر عدد المتفوقين في شــعوب دون شــعوب فبطبيعة هذه الحال تكون هذه الشــعوب التي كثر أفرادها المتفوقون شعوبًا عليا ومن حقها السيطرة والنفوذ.

وتعتمد النظرية في إثبات دعواها على عوامل منها:

١- أن القــدرة العلويــة شــاءت أن تختار عنصــرًا متفوقًا من بني الإنسان لتعهد إليه بالإدارة والقيادة في العالم.

٢- أن العلم في ذاته دافع إلى السيطرة والغلبة فإنه يسلم صاحبه وسائل ارتقائه وسموه.

٣- أن التاريخ يحدثنا عن الأبطال وحدهم فهم السادة المطاعون.

٤- أن الواقع يصف لنا حاجة الأمم الماســة إلى التوســع وبســط النفوذ نتيجة لزيادة الإنتاج وكثافة النسل.

ثــم تنتهــي النظرية بالدعوة إلى إنشــاء إمبراطوريــة واحدة تضم جميــع هذه الشــعوب التي كتب لهــا ابيضاض الجلــد وصفاء الدم فتهيمن على العالم وتسيره بإرادتها الجبارة.

ومن الواضح أننا لا ننكر تفوق بعض الناس على بعض لأمور لا ترجع للجنس والدم، بل لازدياد الثقافة وارتقاء البيئة وهذا ما عناه القرآن حين قال:

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾

(الأنعام: ١٦٥)

والكونت دي غوبينو بمنأى عما نحن فيه لأنه يرجع بالتفوق إلى الدم والعرق، وقد نسي أن المدنيات الباهرة على شواطئ النيل ودجلة والفرات وفي سوريا واليمن السعيد قد ازدهرت حين كانت أوروبا ذات الدم المزعوم متوحشة تتخبط في عصور الظلمات؛ بل إن بغداد العباسية والقاهرة الفاطمية وقرطبة العربية كانت جميعها ترفع مشعل الحضارة الإسلامية؛ وبلاد التفوق الموهوم تضم أناسًا عراة يرتدون جلود الذئاب ويعيشون عيشة الهمجي المتوحش في أدغال الغابات وظلمات الأحراش.

ومن المؤسف أن نظرية الكونت قد وجدت صداها الرنان في أوروبا بنوع عام وفي ألمانيا بنوع خاص إذ وفدت إليها بعد الوحدة الجرمانية وتطلع ساستها إلى مشاركة إنجلترا وفرنسا وهولندا في مستعمراتها الشاسعة عن طريق الغصب والاستغلال، وقد تأثر بها فردريك نيتشه فأوحت إليه ببعض آرائه في السبرمان وأخذ الشباب الألماني بتأثير هذه الأكذوبة يغني نشيد (ألمانيا فوق الجميع) ثم اندفع متهورًا إلى تأجيج حربين كبيرتين عادتا على الإنسانية المعذبة بالهول والشقاء!

لقد كان من الغريب الشاذ أن تدعو نظرية الفروق الجنسية إلى الوحدة الجماعية في إمبراطورية تضم الشعوب البيضاء، وتبسط سيطرتها على الشعوب الملونة، وإذ ذاك -في منطق الكونت

وأشـياعه- يسـتتب الأمن حيـث يخضـع الضعيف الأبلـه الجاهل للقـوي العاقل العالـم ! وتمضي القـرون المتتابعة علـى تأثيل هذه الإمبراطورية وتثبيت دعائمها في الوجود فيعم الاستقرار.

ولكـن مرور نصف قـرن فقط عصف بآمال عشـاق هذه النظرية الخرقاء، وجعل أشـياعها من متطرفي الألمان يتحسـرون لخيبتهم المريرة في حربين هائلتين، وثبت للعالم الإنساني كافة أن أسطورة التفـوق حلـم مجنـون عصف بـرأس أرسـتقراطي نشـوان ! وجعل المنصفون من كتاب أوروبا ينظرون إلى أسـاس السـعادة الإنسانية مـن جديد فيعرفون أنه في إنصاف الشـعوب وتقرير حق المسـاواة كما شرعها الإسلام، ولذلك أصاب المستشرق الإنجليزي الأستاذ جب مقطع الصواب حين قال: «إن الإسلام ما زال في قدرته أن يقدم للإنسـانية خدمـة باهرة في تأليـف الأجناس البشـرية المتنافرة في جبهة واحدة أساسها المساواة».

وتلـك كلمة حـق تزري بجميـع ما صاح بـه أنصـار التفرقة من لدن أفلاطون وسـقراط إلى ما يردده الآن بعـض أعضاء الكونجرس الأمريكي من لغو زائف فات أوانه وانقطع مداه.

الرأي العام في الإسلام

ينظر بعض المفكرين في أوروبا إلى الرأي العام نظرة مريبة فهو في رأيهم آلة تسخرها الدعاية وتسيرها العاطفة دون تعمق في أسباب أو ارتقاب إلى نتائج، والكاتب اللبق يستطيع في منطق هؤلاء أن يحول الجماهير عن رأي صائب إلى رأي مخطئ بما ينمق من خيالات، وقد يكون هذا القول منطبقًا على ما نشاهده في التاريخ الأوروبي المعاصر فهو يقدم لنا من ألوان الاحتيال على الحقائق وأفانين التجهم على القيم ما يدفعنا إلى إساءة الظن بالرأي العام الأوروبي مهما يزعم لنفسه من تقدم وتثقيف، فنحن نجد المعسكرين: الديمقراطي والشيوعي كليهما يقدسان في ظواهر الأقوال مكانة الرأي العام ولكنك تجيل العين الفاحصة فتجد كل معسكر يخضع لساسة محترفين يوحون بالفكرة الفردية بادئ ذي بدء ثم يعبئون شتى الجهود اللسانية والقلمية للدعاية لها حتى تصبح بين يوم وآخر أمرًا بديهيًا لا يقبل المعارضة، ويندفع الرأي العام هناك لتأييدها مطالبًا متسرعًا وكأنها قد انبعثت من أعماقه غافلًا عما يكون بها من مآخذ تستأهل المراجعة.

وقد كان وجود المدرسة النازية في ألمانيا معلمًا أول يلقن أساليب الدعاية والتمويه فاندفعت الدول الأخرى إلى تطبيق نظرياته، واستلهام مذاهبه، وأصبح كتاب الدكتور جوزيف جويبلز (نصيبي في كفاح ألمانيا) دستورًا محترمًا في واقع الأمر لدى الأوروبيين، وإن تظاهروا بالنقمة عليه، والبعد عن اتجاهاته، والحق أن الدكتور جويبلز وزير الدعاية الألماني كان عجيبًا جدًا في بابه، وما نحسب أن دولة من الدول وهبت داعية عظيما في مثل ملكته وكفايته، فقد فرض عليه هتلر أن يضع برنامجًا لتعليم الشعب الألماني تعليما من

شـأنه أن يجمع كل القوى المؤثرة في الشـعب في يد واحدة مطلقة السـلطة والتصـرف، وجويبلز يقـول بصدد ذلك: «لقـد ألقي علي عبء هذا العمل، إنه ميدان فسيح تتجاوز حدوده مقدرة كل إنسان، إنـه عمل هائل يتطلب تحقيقـه إنفاق العمر في جهد متصل، وصبر عظيـم، ويتطلب قـوة ذهنية جبـارة ومقدرة تامة على إدارة وسـائل الدعاية الحديثة، إدارة تشمل الشعب جماعة جماعة وفردًا فردًا».

وقد ذهبت النازية، وبقي أعداؤها ليسيروا على نهجها في غسق الليـل، زاعمين أنهم يقفون منهـا على طرفي نقيض، وقل لي بربك كيـف يوافق الرأي العام المثقف في أمريكا وإنجلترا وفرنسـا على فظائع الاسـتعماريين في تونـس والجزائر، وإبـادة آلاف الضحايا، كما وافق من قبل على تشريد أمة عربية شهيدة دون أدنى جريرة؟! كيـف يوافـق الرأي العـام الأوروبـي والأمريكي على هـذه الفظائع الدامية إن لم تكن أسـاليب الدكتور جويبلز في الدعاية هي الدستور الأعظم لقادة هذه الشعوب؟

لسـنا نتجنى على الرأي العام فـي أوروبا الديمقراطية حين ننص على أنه قد فقد حريته الطبيعية وأصبح آلة مسـخرة تديرها الدعاية كما تشاء، فهناك عشرات من المفكرين الديمقراطيين يعلنون هذا الواقع الشـائن في مرارة، وها هو ذا الدكتور لويبلز الأسـتاذ بجامعة كونتجن يجهر بذلك في صراحة إذ يقول:

«وفي الواقع لقد ابتعد الرأي العام في دول الأحزاب الديمقراطية عـن أن يكـون التعبير الصادق في المجتمـع الحر، ويظهر ذلك من ملاحظة أن المبادئ الحرة في هذا البلد -يريد إنجلترا- قد احتفظت بقوتهـا أكثر من أي بلد آخر، ولكن رغم ذلك نرى كيف أخذ الرأي

العام تحت الضبط الآلي، والسيطرة الجماعية يميل ليمس أكثر فأكثر نوعا غير منتظم الشكل يخضع لتيارات الأفكار التكتلية، وبهذا غدا الرأي العام الجماعي الذي فقد القوة المعبرة والكفاءة واقعًا تحت تصرف أولئك الذين يديرون المجتمع»[٥].

وطبيعي أن يبحث الكاتب وأمثاله من المفكرين عن علاج ناجع لهذا الداء الخطير، ليرد على الرأي العام ما فقد من ضعفه، فيصبح كما تتخيله مُثُلهم الفكرية أمينًا مخلصًا يهدف إلى الكرامة والحرية والمساواة!! وقد أجهد الأستاذ ليبولز فكره منقبًا عن هذا العلاج حتى اهتدى إلى القيم الروحية، فهي التي تفعل ما لا يفعل القانون، وتصون مالا تصون التقاليد المتوارثة، وإنه ليؤكد ذلك مكررًا معاودًا، فيقول في استنتاج متعقل: «وقد أظهرت اختبارات القرن الماضي هبوط كل محاولة لبناء سياسي جديد على أسس إنسانية محضة، وثبت أن انبعاث الروح الحقيقي يكون عن طريق أولئك الذين يجمعون تجاربهم من موارد روحية عميقة».

وهنا موضع العبرة من كلام الرجل، فإن تكوين رأي عام عن طريق القيم الروحية قد وجد تطبيقه العملي في الإسلام وحده، ونجح نجاحًا هائلا تتابع دلائله فيما سطره المؤرخون شرقا وغربًا عن حياة الإسلام الأولى في عهده الخالص المخلص، ونحن نقول: إنه وجد تطبيقه العملي في الإسلام وحده، لأن المسيحية لم تضع قوانين المعاملات، ونظم التعاقد والترابط في كتاب مقدس لتكون معروفة مؤكدة لا يختلف فيها اثنان، بل اتجهت إلى التهذيب الروحي والتطهير الوجداني مكتفية بقوانين المجتمع الروماني، أما الإسلام فقد عالج أمور الدولة وسن شرائع الناس فسار وراءها

(٥) ترجمة الأستاذ فؤاد طرزى، ببغداد.

الرأي العام المسلم قبل أن تتجه إليه معاول التخريب.

وتاريخ الحقبة الأولى من حياة الإسلام شاهد لا يخطئ، فقد جاء محمد ﷺ والعرب أحرار لا تجمعهم غير التقاليد الموروثة المتباينة، فحمل إليهم رسالة العدالة والمساواة والإخاء والحرية، وبلغ الناس كتابًا يجمع ما أمر الله به أن يفعل، فأصبح القرآن دستورًا جامعًا وإمامًا هاديًا، وبذلك كون رأيا عامًا يتمتع بأهدابه فيعتصم بفضائله ويخالف مناهيه، وأصبح كل مسلم يختط طريقه في الحياة على هديه، فإذا أطاع أمير المؤمنين ففي طاعة الله لا في معصيته، وإذا عامل رئيسه أو مرءوسه ففي نطاق شريعة مقدسة مدروسة، فلو نعق ناعق بما يخالف آية كريمة أو يعارض أثرا نبويًا تحداه الرأي العام الإسلامي أن يأتي بدليل قرآني يقف له!

وهكذا تكون الرأي العام في ضوء ساطع من القيم الروحية، وفي هدى واضح من كتاب الله، وإنه ليحدد مكانة الأمة الإسلامية وواجبها الشرعي فيقول في جلاء:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠)

وينحي باللائمة على بني إسرائيل لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، كما يذم المنافقين ذمًا شائنًا؛ لأن بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم.

وقد جاءت أفعال الرسول - وهو المثل الأعلى للإنسان في الإسلام - وأقواله شارحة وموضحة لأوامر الكتاب في تكوين رأي عام مستنير يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والرأي العام حينئذ هو مقياس الترجيح وأداة الحكم، تصدر الأمة عن رأيه، وتنبعث قوانينها من هداه.

روى ابن عساكر عن ابن مسعود -رضي الله عنه- أنه قال: «قال رجل: يا رسول الله، متى أكون محسنًا ومتى أكون مسيئًا؟ فقال إذا أثنى عليك جيرانك أنك محسن فأنت محسن، وإذا أثنى عليك جيرانك أنك مسيء فأنت مسيء» !!

وروى البخاري عن حرملة -رضي الله عنه- قال: «قلت: يا رسول الله، ما تأمرني به أعمل، فقال: ائت المعروف، واجتنب المنكر، وانظر ما يعجب أذنك أن يقول لك القوم إذا قمت من عندهم فائته، وانظر الذي تكره أن يقول لك القوم إذا قمت من عندهم فتجنبه».

وروى البيهقي في الشعب عن رسول الله ﷺ قال: «(لا تقفن عند رجل يقتل مظلومًا، فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه، ولا تقفن عند رجل يضرب مظلومًا فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه».

وقال أيضًا فيما رواه البخاري عن النعمان بن بشير: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأخذ كل واحد منهم نصيبًا، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء يمرون به على الذين في أعلاها فتأذى الذين في أعلاها بالمار عليهم، فقال الذين في أسفلها: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فأخذ أحدهم فأسا، فجعل ينقر أسفل السفينة، فأتوه، فقالوا: مالك؟ قال: تأذيتم بي، ولابد لي من الماء، فإن أخذوا على يديه ومنعوه أنجوه، ونجوا أنفسهم، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم».

في ضوء هذه المبادئ الصريحة قرآنًا وحديثًا تكوّن الرأي العام الناضج، فقال أبو بكر -رضي الله عنه- في أول خطبة له: « أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم» وقال عمر بن

الخطاب – رضي الله عنه – : «من رأى منكم اعوجاجًا في فليقومه !»

وهكذا أصبح كل مسلم رجل سياسة مفهومة، تتغلغل في أعماقه، فهو يلتزم حد الله فيما يأتي ويدع.. وأصبح الرأي العام الإسلامي إذ ذاك حقيقة واقعة يسيطر عليها القرآن، وتجمعها روح الإسلام.

ولو قدر للفكرة الإسلامية أن تطرد على سوائها المستقيم بعد النبوة والخلافة الراشدة، لسعد بها المسلمون، ولكنها انتكست على يد معاوية حين أخذ البيعة ليزيد، فرغب ورهب، وقارب وباعد، وأسكت الأفواه بالمال تارة وبالزجر تارة أخرى، فأخذ الرأي العام الحر ينحسر ويتقلص، وأصبح المخالف الجريء يهتف في أذن العاصي الغوي بالآية الحاسمة والأثر القاطع فلا يجد السميع، ثم جاء الخلفاء من بعده فنحوا نهجه – إلا قليلًا ممن عصم الله – فانطفأت جذوة الغيرة على توالي المحن، وتكون رأي عام آخر يقبل الضيم ويستنيم للمكروه!! ولك أن تقرأ هاتين الحادثتين لتوازن بين عهدين متنافرين اجتمع فيهما الرأي العام على مبدأين متناقضين، فعَلَت كلمتُه في عهد، وخَبَت ريحه في عهود.

١ – كان عمر بن الخطاب يقسم بعض الغنائم، فنقده بعض الحاضرين، فصاح صائح بالناقد: اتق الله فإنه أمير المؤمنين!! فقال عمر: دعه فلا خير فيكم إن لم تقولوها فينا، ولا خير فينا إن لم نتقبلها منكم.

٢ – خطب أبو جعفر المنصور فقال: أيها الناس، اتقوا الله، فقام إليه رجل من عرض الناس، فقال: أذكرك الله الذي تذكرنا به يا أمير المؤمنين، فرد أبو جعفر: سمعًا لمن ذكّر بالله، وأعوذ بالله أن أذكّر به فأنساه، وتأخذني العزة بالإثم، وأما أنت، فوالله ما الله أردت بها، ولكن ليقال: قال فعوقب فصبر، وأهون بها لو كانت، وأنا أحذركم

أيها الناس أمثالها ، فإن الموعظة علينا نزلت ومنا أخذت .

فقوة الرأي الحر الملزم تتجلى بوضوح في عهد الخليفة الراشد ، وتتضاءل في انكماش في ظل المتجبرين من الورثة ، والمدلين بالنسب ، ونحمد الله أن تقدم بنا الزمن فمضت عصور الاستبداد إلى غير رجعة ، وفاء المسلمون إلى دينهم يحفظون قرآنه ، ويتفهمون حديثه ، ويقرءون تاريخه ، وما أحراهم أن يكونوا رأيًا عامًا إسلاميًا تجتمع كلمتهم عليه ، دون تراجع ونكوص .

على أن أشد ما يمنى به الرأي العام من أخطار هو أن يصاب بأبالسة يحرفون الكلم عن مواضعه ، فلا يعمدون إلى الصراحة في فرض أفكارهم الخاصة ، وأهوائهم الشخصية ، بل يقصدون إلى القضايا المسلمة ، والحقائق المتعارفة ، فيشرحونها على غير وجهها ، ويحملونها ما لا تطيق من الاتجاهات ، والجمهور لا يفطن إلى الوجه الصائب ، وقد يجوز ذلك بكثرة في القوانين الوضعية والمسلمات التقليدية ، ولكنه يصعب كثيرا في دستور محكم فسرت آياته الكريمة في شتى المراجع على توالي العصور واشتهرت منازعه اشتهارًا ظاهرته السنة المتداولة ، وأيده واقع التاريخ الإسلامي في مده الحافل بشتى عظاته ومثله ؛ لأنه وجد في كل جيل من يرسم الطريق الواضح على هديه ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ! ! وإن ضاعت صيحاتهم بددًا في خضم المتجبرين ، ولكنه ضياع مؤقت لا يلبث أن ينشد نفسه ، أما الزبد فيذهب جفاء .

فالرأي العام الإسلامي يعرف مصادر وحيه ، ومصابيح هدايته ، وله إحساس يلهمه وجه الحق فيما اشتبه من الدليل والتبس من القول ، ولديه مراجعه المتوارثة على الأجيال من خلاصة التفاسير ، ولباب الأحاديث ، ومعتمد الكتب والنصوص ، فإذا حاول محاول ما

أن يخدعه عن طريق فلن يستطيع المسير ، لاسيما في عصر مدني كهذا العصر تعددت فيه ألوان المعارف ، وتيسرت سبل التحصيل ، ولا أظن رأيًا عامًا آخر لا يستند في قيمه الخلقية ومعاملاته الشخصية ، إلى كتاب واضح محكم ، بمستطيع أن يجد من حرارة الإيمان ما يجده الرأي العام الإسلامي في دفاعه عن المقدسات والذخائر .

وإذا كان المستنيرون من دارسي التاريخ الإسلامي يأسفون لانحراف حكامه حقبًا طويلة عن طريق الحق ، فإن العهود الحديثة أصبحت تستبشع هذا الانحراف ولا تصبر عليه ، وتتطلع إلى عهود المساواة والأخوة والحرية في شوق عظيم ! ! وقد سارت كثير من الدول الإسلامية شوطًا حميدًا في هذا الطريق .

صلة الأرحام في الإسلام

من أمثلة الإعجاز القرآني الذي لا يلتفت إليه قول الله عز وجل:

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾

(محمد: ٢٢، ٢٣)

فقد قرنت الآية الكريمة تقطيع الأرحام بتولية الحكم، جاء ذلك مصداقًا لما نطق به لسان التاريخ من بعد، حين قطعت الأرحام أبشع تقطيع، إذ دأب ولاة الحكم في كثير من عهود الدول السالفة في الشرق والغرب على أن يقطعوا أرحامهم بانتزاع ولاية العهد ممن عقدت له إلى ابن الحاكم القائم بالأمر، وذلك حدث هائل ولا يتم بغير تهديد ووعيد يصلان في أكثر الأحوال إلى التآمر والاستئصال.

وما تآمرُ أبي جعفر المنصور وعشرات ممن ساروا على سنته في ذلك مما يُجْهَل فنعيد الخوض فيه! بل إننا لنذكر ما كان من تقاليد الدولة العثمانية حين دأب سلاطينها على استئصال أقاربهم وذوي رحمهم في الساعات الأولى من توليتهم الحكم! حتى اضطر بعض مؤرخيهم أن يقول في بدء الحديث عن كل سلطان: وقد قام بإعداد حمام الدم المتبع في مثل هذه الأحوال! وما حمام الدم هذا إلا سفك دماء ذوي القرابة القريبة ممن يتوهم فيهم الحاكم – بالظنة المحتملة – تطلعًا إلى الحكم في يوم بعيد! وكان السلطان سليم قد سن دستورا جازمًا لمن بعده، حين قال قولته المشئومة: السيفان لا يجتمعان في قراب واحد، بعد أن قتل أباه وأخاه، فصار خلفاؤه ينهجون نهجه الظالم في تقطيع الأرحام كعمل مشروع تقبله الناس بكل ارتياح!

وهؤلاء هم الذين أصمهم الله وأعمى أبصارهم وحقت عليهم

لعنته في كتابه حين قال :

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾

(محمد : ٢٢ - ٢٤)

ولا عجب بعد ذلك أن يهتم الإسلام بصلة الرحم، وأن يشدد النكير على قاطعها، استنادًا لأمر نفسي جبلت عليه الطبائع البشرية في كل زمان ومكان، إذ إن ذا رحمك دائم التطلع إلى خيرك إن حرمه، فهو يعتده حقا حتميا ينادي به الدم الممتزج والقرابة الواشجة، فأنت إذا كنت غنيا موسرًا وتركت الفقير الأجنبي محرومًا من صدقتك، فإن غضبه عليك لا يبلغ معشار ما يشتعل في صدر قريبك الفقير من غضب؛ لأن منطق الدم القريب يصيح به في عروقه مؤكدًا حقه عليك في رعايته، فأنت بإهماله تشعل في صدره جمرًا لا يزال يتقد حتى تطفئه بشاشتك بالخير وصلتك بالبر !

تلك حقيقة نفسية فطن إليها الإسلام حين قدم ذوي القربى على غيرهم، فقال ﷺ حين سئل : أي الصدقة أفضل : جهد المقل وابدأ بمن تعول، وقد أمر رسول الله يومًا بالصدقة، فقال رجل : يا رسول الله، عندي دينار، قال : تصدق به على نفسك، قال عندي آخر، قال : تصدق به على ولدك، قال : عندي آخر، قال : تصدق به على زوجك، قال : عندي آخر، قال : تصدق به على خادمك، قال : عندي آخر، قال : أنت أبصر به. (مسند أحمد)

هذا بعض ما جاء في الحديث النبوي، أما القرآن فقد رتب مصارف الصدقة ترتيبًا لا يحتمل اللبس حين قال - عز وجل - في سورة البقرة :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ ﴾
(البقرة: ٢١٥)

وحين قال في سورة الروم:

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ﴾
(الروم: ٣٨)

وحين قال في سورة البقرة:

﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾
(البقرة: ١٧٧)

وقد أخطأ بعض المفسرين حين جعل قول الله – عز وجل – في سورة الشورى:

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ ﴾
(الشورى: ٢٣)

خاصًا بأهل البيت النبوي الكريم، ناسيًا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقول الأصوليون، ولو شئنا أن نذكر كل ما جاء في القرآن والحديث من تفضيل ذوي الأرحام على غيرهم من المحتاجين ما اتسع أمامنا المجال.

وكعادة علماء الإسلام في التحليل والشرح، نجدهم يسهبون في علة تفضيل ذوي الرحم لدى الصدقات، فمن قائل: إن المتصدق أقدر على معرفة المحتاج من ذوي قرباه، وأخبر بهم من سواهم، فقد يضع الصدقة في يد البعيد وهو غير فقير منخدعًا ببعض الظروف

والملابسـات، أما ذوو رحمه فهـو أدرى بمصادر رزقهم ومبلغها من الضيـق والسـعة، لذلك كانت صدقـة القريب يقينًـا لا يتطرق إليه الظن، ومن قائل:

إن فـي مـودة ذوي القرابة تدريبًا على مـودات الأباعد، وتمهيدًا للإحسـان الشـامل الذي ينتظر أن يعم البعيد باتساع منافذ الرحمة تدريجيًا لدى المحسن!

ومـع ارتياحي لهذيـن التعليلين فإنـي أضيف إليهمـا أن العامل النفسي المشترك بين ذوي القرابة، يجعل الغني مدفوعًا إلى العطف عليهم بادئ ذي بدء بحيث لو قصر في ذاتهم ما صادف ذلك ارتياحًا خالصًا من ضميره، فهو يثور عليه في أعماقه ثورات متقطعة قد تجد صداهـا عند الخيرين مـن ذوي البر، وقد لا تجـده عند من أعمتهم الشراهة وأفسـدهم الطمع! كما أن هذا العامل النفسي بذاته يجعل الفقيـر مترقبًا خيـر قريبه الثري في كل لحظة من لحظات عسـره، فإذا أبطأ عنه فإنه لا يسـتطيع إطلاقًا أن يقرن شـحه بشـح الأجنبي البعيـد، فالقريـب لديه أعظم جريـرة وأفدح ذنبًا وليـس ذلك فيما يتعلـق بالصدقـة وحدها بل إنـه يمتد إلى كل تصـرف من تصرفات الحياة!

وهذه حقيقة إنسانية واضحة لمحها الجاهلي القديم حين قال:

وظـلـم ذوي الـقـربـى أشـد مضاضة

على النفس من وقـع الحسام المهند

ومـا أريد أن أفيـض في اسـتيفاء مناحي القول فـي تفضيل ذوي القربـى، فلعـل غيـري أقدر علـى ذلك وأكفـأ، ولكنـي أمهد بهذه المقدمـة الموجزة لقصـة أدبية رائعة ذات مغـزى خلقي يؤكد صلة الرحـم! وقد قرأتها في كتاب «المكافأة وحسـن العقبى» لأحمد بن

يوسف الكاتب المعروف بابن الداية المتوفى سنة ٣٤٠هـ!

وفي تراثنا الأدبي كتب جيدة يصح أن تكون كتب أخلاق علمية قبل أن تضاف إلى التراث الفني وحده، وكتاب «المكافأة» من أظهر الأمثلة لهذه الكتب، إذ كان هدفه الأساسي خلقيًا مثاليًا يدعو إلى البر والمعروف ويؤكد مثوبة الخير المرتجاة، وعقوبة الشر المنتظرة في الحياة الدنيا قبل الآخرة بما يروي من قصص واقعي ويسجل من حدث متعالم مشتهر وهو بذلك أنفع لقارئه من كتب الأخلاق التقريرية التي تعتمد على المواعظ والنقول وحدها أو التي تستند إلى النظريات التجريدية في فلسفة الخير والشر دون أن تمس شغاف القلوب بما تصور من عاطفة وبما تلون من منظر، وقد كان أحمد بن يوسف من كبار البلغاء الذين يرتسمون الإيجاز اللامح ويبتعدون عن بريق اللفظ ورنين الصنعة إلى جمال الصدق وصفاء التعبير وإصابة المحزّ، ولن نقدمه بأحسن من بيانه حين يروي هذه القصة المؤثرة فيقول:

وحدثتني أم آسية، وكان لها دين ومذهب جميل ومحل لطيف من خمارويه وقد تذاكرنا لطف الله - عز وجل - في أرزاق عباده، وحسن الدفاع عنهم أنه تزوجها وأختَها أخوان، فأقبلت حال زوج أختها، وأدبرت حال زوجها، قالت: وتوفي زوجها بأسوأ حالة وخلف لها بنات وتعذر عليها تجهيزه من اختلاله، وتوفي زوج أختها وقد خلف من العين والمساكن والأواني لولد أختها، قالت: فكنت أجاهد في مؤنة ولدي وإذا وقف أمري صرت إلى أختي فقلت: أقرضيني كذا وكذا استحياء من أن أقول لها «هبي لي» ودخل شهر رمضان، فلما مضى نصفه اشتهى على صبياني

حلـوى في العيد، فصرت إلـى أختي فقلت لهـا أقرضيني دينارًا أعمـل به للصبيان حلـوًا في العيد فقالت: يـا أختي تغيظيني[٦] بقولـك أقرضينـي وإذا قرضتك من أين تعطيني أمن غلة دورك أو بسـتانك؟ «لو قلت لي: هبي لي كان أحسـن» فقلت لها أقضيك من لطف الله تعالى الذي لا يحتسب، وجوده الذي يأتي من حيث لا يرتقـب، فتضاحكـت وقالت: «يـا أختي هـذا والله من المنى والمنى بضائع النوكى» فانصرفت عنها أجر رجلي إلى منزلي.

وكان فـي جوارنا امرأة تطلق[٧] قد أوجعت قلبي فقلت أدخل إليهـا فليـس لها قابلة قالت أم آسـية: ووالله ما عاينت ممخوضة [٨] قـط، فدخلت إليها فمسـحت جوفها، وأجلسـتها كما كان القوابل يجلسـنني فـي طلقي فولدت من سـاعتها فلما أمسـك صياحها، جاء الخادم يسـأل عنها فقلت: قد ولدت، فعجب من سـرعة أمرها، وظن هذا شيئًا قد اعتمدته بحذق صناعة، ولطف فـي مهنة، فمضى إلى سـته بنـت اليتيم، كانت مقربًـا [٩] بأول ولد حمل لأبي الجيش وقد عرض عليها قوابل استثقلتهن فقال: «وفـي جوارنا قابلة أحضرناهـا لامرأة في حارتنـا فوضعت يدها على جوفها فسـقط ولدها» ووصفني بمـا لا يوجد في قدرة أحد إلا بالله عز وجل، فقالت للخادم: إذا كان غدًا فجئني بها، فأتاني

---

(٦) هكـذا بحذف النون على لغة مرجوحة تعمدها الكاتب مراعاة لأساليب العامة في التخاطب.

(٧) طلقت المرأة إذا أدركها المخاض.

(٨) الممخوضة التي ضربها الطلق.

(٩) الحامل المقرب التي دنت ولادتها.

الغلام ودعاني إلى مولاته، ثم اشتكت مغسًا [١٠] تجده المقرب فأدخلت يدي في ثيابها ومسحت جوفها وعججت إلى الله تعالى سري بتوفيقي، وكنت أدعوه ومن حضر من أهلها يتوهم أني أرقي فسكن ما وجدته وتبركت بي ودخل إليها خمارويه وقال: ما وجدت؟ فقالت: مغسًا في جوفي فوضعت قابلة أردتها يدها عليه فزال ما أجده، وأخرجتني إليه - وكان قريبا من حرمه - فقال لي: أرجو أن يخلصها الله عز وجل ببركتك.

قالت أم آسية: «ودخلنا في العشر الأواخر من شهر رمضان وقد تمسكت من الإخلاص لله عز وجل بما لا يصل إليه من ساح في الجبال خوفًا من شماتة أختي بي، فلم تمض إلا ثلاثة أيام حتى مخضت فأجلستها على كرسي الولادة وكان مقدار طلقها ساعتين، فولدت ابنًا أسهل ولادة وأبو الجيش يقوم ويقعد ويذهب ويجيء فلما ولدت - كانت تتوقع من الولادة أمرًا عظيمًا - قالت لي: هذا الطلق، قلت: نعم، فقبلت يعلم الله - عيني من الفرح، وصاح خمارويه: أخبريني يا مباركة بخبرها، فقلت: وحياة الأمير إنها في عافية، وقد ولدت غلامًا سوي الخلق بحمد الله، فوجه إلي بألف دينار وألح أبو الجيش في النظر إليها لفرط إشفاقه عليها، فاستوقفته إلى أن نقلت حوائج الولادة وقلت لها: يا سيدتي اضحكي في وجهه كما تريه، فلما دخل إليها ضحكت في وجهه فتقدم بصدقة ومال كثير عنها وعن ولده».

وقالت أم آسية: «لما كان يوم الأسبوع ووقع قبل العيد بيوم واحد، أمرت لي بخمسمائة دينار وحصل من أتباعها ألف دينار فحصل لي ألفان وخمسمائة دينار، وخلعت علي، وسائر حشمها

---

(١٠) المغس: المغص.

أكثر من ثلاثين خلعة، وحمل إلي مما أعد للعيد ثلاث موائد خاصة، وانصرفت إلى منزلي وأرسلت إلى أختي مائدة ووافتني مهنئة وقد تقاصر طولها فأريتها ما حصل لي من المال والخلع والطيب وقلت لها: يا أختي أنكرت على قولي أقرضيني ومن هذا كنت أقضيك فلا تستصغري من كان الله مادته وعليه مدار ثقته وتعويضه».

واكتسبت هذه المرأة بمحلها من أبي الجيش مالاً كثيرًا وقضت لجماعة من وجوه البلد حوائج خطيرة.

هذه الحادثة تغني عن مئة صحيفة تكتب في إيضاح الحساسية المفرطة بين ذوي الأرحام فهي تكشف بأوضح الصور ما يمور به تيار الدم في النفوس ذوات الوشائج القريبة، والأواصر الدانية! فمن الواضح أن أخت القابلة كانت محسنة تعطي شقيقتها ما تطلب، فليست من العقوق بمحل يستكره! ولكن جملة يسيرة من قولها العابث فعلت في نفس الأخت ما تفعله النار في الهشيم! تلك هي قولها: «تغيظيني بقولك أقرضيني، وإذا قرضتك من أين تعطيني»؟ ولو كانت الأخت المحسنة تدرك حساسية الموقف بين شقيقتين من نبعة واحدة ما قالت شيئًا ولعرفت أن التي تقول لها أقرضيني كانت تشعر بمثل لذع النار استحياء من قولها: هبي لي!

ولك أن تقدر شعور البائسة المسكينة وهي تتحدث عن حرصها البالغ فتقول:

فأدخلت يدي في ثيابها، وعججت إلى الله تعالى في سري بتوفيقي وكنت أدعو، ومن حضر من أهلها يتوهم أني أرقي!!

أو تقول: «ودخلنا في العشر الأواخر من شهر رمضان وقد تمسكت من الإخلاص لله عز وجل بما لا يصل إليه من ساح في الجبال خوفًا من شماتة أختي بي».

ثـم حين تقول فـي النهاية : «وانصرفت إلى منزلي فأرسـلت إلى أختـي مائدة ووافتني مهنئـة، وقد تقاصر طولها فأريتها ما حصل لي مـن المال والخلع والطيب وقلت لهـا : يا أختي أنكرت على قولي : أقرضيني ومن هذا كنت أقضيك فلا تستصغري من كان الله مادته».

إن قولها عن أختها : «تقاصر طولها» على إيجازه المفرط ليتحدث حديثًا مسـهبًا طويلًا عـن دقائق العلائق بيـن ذوي الأرحام وليصور لنـا خبرة الإسـلام الحصيفة بطبائع البشـر حين دعا إلـى الاحتفاء بـذوي الأرحام وتقديمهم في مجال البر والإحسـان، إذ إن وشـائج الدم تفرض لنفسها حقوقًا يسمع صوتها مجلجلًا في حنايا الضلوع وشـغاف القلوب! ومثل هذا الصوت المجلجل لا يسـتطاع إسكاته دون عنـف وإرهـاق! وأذكر أني فرغت من قـراءة كتاب «المكافأة» جميعه على فترات، ولكن لفظتي «تقاصر طولها» لم تزالا تعتملان في صدري حتى حاولت التخلص منهما بتحرير هذا المقال.

الصدقة بين الكرامة والامتهان

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

(البقرة: ٢٦٧)

سبب النزول:

﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِ﴾

لقد علم الله حرص النفس على المال، وشغفها بادخاره، فإذا دعا داعي الإسلام إلى التصدق، وجد كثير من الناس في نفسه صراعًا بين الجود والشح، فهو يود أن يستبقي كل ما لديه، ويهوله أن ينقصه بالزكاة، وكأنها عبء فادح قد وقع على عاتقه، غير ملتفت إلى أنها قرض يقدمه إلى الله ليضاعف لديه، فإذا خاف مقام ربه وتغلب على ما في أطوائه من صراع، فقد يميل به الشيطان إلى اختيار الرديء الخبيث مما لديه ليكون موضع التصدق، وفي ذلك ما يدل علي أنه يحاول ألا يضحي بشيء ذي بال.

روى ابن أبي حاتم عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال: نزلت الآية الكريمة:

﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

(البقرة: ٢٦٧)

فينا معشر الأنصار، كنا أصحاب نخل، فكان الرجل يأتي من

نخلــه بقدر كثرته وقلتــه، فيأتي رجــل بالقنو، فيعلقه بالمســجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع جاء فضرب بعصاه، فســقط منه البسر والتمر فيأكل، وكان رجل يأتي بالقنو قد انكســر فيعلقه، فنزلت الآية، قال: فلــو أن أحدكم أهدي له مثل ما أعطــى ما أخذه إلا على إغماض وحيــاء فكنا بعد ذلك يجيء الرجل منا بصالح ما عنده.

احتراس:

نزلــت هــذه الآية في بعــض الأنصار فحســب لا فــي مجموعهم الطيب الأصيل، حيث كان القوم بالمدينة موضع الإيثار والســماح، ولا نجد في تزكيتهم الصادقة أبلغ من قول الله ـ عز وجل ـ:

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

(الحشر: ٩، ١٠)

والنفوس البشرية في كل زمان ومكان ليست في مستوى واحد، فقد تجد في الأســرة المحــدودة ذات الأب الواحد والأم الواحدة من يشــذ عــن المجموع في تصرف ينفــرد به، فلا يرجــع عيبه إلا على نفســه، ومنازعة النفس في الصدقة جهاد يحتــاج إلى عزيمة صادقة مصداقًا لقول الله:

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

(الحشر: ٩)

نفسية المحتاج:

إن الفقير المحتاج إنسان ذو شعور وإحساس، وهو يزن ما يقدم إليه ميزانًا واقعيًا، فيدرك نوعه من الجودة والرداءة، فإذا وجد الصدقة ذات قدر ممتاز أحس بالغبطة في نفسه، وعرف أن منزلته من إخوته في الإسلام منزلة الأخ المحترم، فيهنأ بما أخذ، ويستمرئ الصدقة استمراء يبعد عنه مرارة الكدر، أما إذا كانت الأخرى فسيلحقه من الهوان النفسي ما يجعل شعوره يتقد بالحسرة، وما يعمق الهوة بينه وبين قوم هم إخوانه في الدين والإنسانية، وقد يؤثر مرارة الجوع على ما حسبه من الازدراء حين يلقى الفتات من أناس يعطونه الصدقة وكأنها انتزعت من جلودهم انتزاعًا وهنا يضيع من نفسه بعض مزايا التصدق، لأن الزكاة مدعاة التواد والتواصل، إذا شعر الآخذ أن من يعطيه يقدم له مثل ما يدخر لنفسه من المتاع، فإذا تزلزل هذا المعنى في نفسه، عده خصمًا يضن عليه بالنفيس الطيب، ولا يكاد يعطيه حق الله إلا عن رهبة جازعة من عقابه، فهو إذن لا يوده لذاته ولا يستشعر في إطوائه أخوة الإسلام التي تجعل المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضًا! وهذا الانتقاص المتعمد في العطاء نوع من الأذى الذي يمحق الثواب، وقد قال الله - عز وجل - في كتابه:

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾

(آل عمران: ٩٢)

روى الإمام أحمد بإسناده عن أبي إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة

عــن أنس بن مالــك أنه قال : وكان أبو طلحة أكثــر الأنصار بالمدينة مالا ، وكان أحب أمواله إليه بئر «حاء» وكانت مســتقبلة المســجد ، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، فلما نزلت :

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾

قال أبو طلحة : «يا رسول الله ، إن الله يقول :

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾

وإن أحــب أموالي إلى بئــر «حاء» وإنها صدقــة لله أرجو بها برها وذخرها عنده ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله ، فقال النبي ﷺ : بخ ، بخ ، ذلك مال رابح ، وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين ، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه» .

نفسية المعطي:

مــن المتصدقيــن من يبــذل عن ســماح لا لبس فيــه ، وهؤلاء هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، ومنهم من لا يستطيع أن ينكر حق المحتاج في الصدقة ، ولكن شــح نفســه يلجئه إلى شتى التبريرات المفتعلــة ليقنع نفســه بالمنع ، فإذا جاء إليــه محتاج يطلب حق الله لديه ، قال إنه قوي الجسم ويستطيع أن يكسب من كفاحه ، وما درى أنه ما تعرض للسؤال إلا بعد ضياع جائع أجبره على السؤال ، أو قال إنــه لا ينفق المال في وجهه المشــروع ، بل يبدده فــي الكماليات ، ولهــذا النمط مــن المنتحليــن للأعــذار المفتعلة أســلاف عاصروا الدعوة الإســلامية ، ووســوس لهم الشــيطان بما صدهم عن ســبيل الخير ، فقالوا - فيما حكى عنهم القرآن :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (يس : ٤٧)

وهــو تبريــر زائف يعلمون في أنفســهم حقيقــة خداعه، لأن كل من تدبر في ملكوت الســموات والأرض يعرف أن الله قد خلق الغني والفقير معًا لتنتظم شـئون الحياة بمعاونة الإنســان لأخيه، وليتخذ بعـض النــاس بعضهم ســخريًا، فـإذا كان من قدر الفقيــر أن يحتاج إلــى المال فإن من واجب الغني أن يســارع إلــى إعطائه حق الله دون انتقاص، لا عن تفضل يتعالى به، بل عن خضوع لأمر واجب الأداء، ومن التغابي المقصود، أن يقول البخيل الشحيح:

﴿ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ ﴾

(يس: ٤٧)

لأن الله – عــز وجــل – قد شــاء أن أن يطعمه حقًــا، حين فرض له نصيبًــا معلومًا فــي مال الغني، وحيــن جعل هذا النصيــب قرضًا لله واجب الأداء، فإذا علم الغني أنه يعطي القرض لربه فلا اســتعلاء ولا تشامخ، وإذا علم الفقير أنه يأخذ نصيبه المفروض فلا استكانة ولا خضوع.

إن بعض هذه الوساوس التي تحيك في صدور البخلاء قد وجدت علاجها في آيات الذكر الدافعة للبذل، الواعدة بالثواب، وفي السنة النبويــة مــن الأحاديث المقنعــة ما يدفع الأنفس الشــح للعطاء دون احتياج إلى الخداع.

حديث كريم:

روى البخاري عن رســول الله ﷺ أنــه قال: «قال رجل: لأتصدقن الليلــة بصدقــة، فخرج بصدقتــه، فوضعها في يد ســارق، فأصبحوا يتحدثــون تصدق الليلة على ســارق، فقال: اللهــم لك الحمد على ســارق، لأتصدقــن بصدقة ثانيــة، فخــرج بصدقته فوضعهــا في يد

زانيــة، فأصبحــوا يتحدثون: تصدق الليلة على زانيــة، فقال: اللهم لك الحمد على ســارق وعلى زانية، لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج فوضعها في يد غنــي، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على غني، فأتي «رأى في المنام» فقيل له: أما صدقتك فقد قبلت، أما الســارق فلعله يســتعف عن ســرقته، وأما الزانية فلعلها تســتعف عن زناها، وأما الغني فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله تعالى».

وهــذا الحديــث يحتــاج إلى وقفة توضــح مغزاه: إن رســول الله ﷺ يريــد أن يقوي دوافع الخير في النفس، وأن يبدد شــكوك المتردد في العطاء، فالإنســان في أعماقه يود أن يبقى كل شــيء في يده دون نقص، والشــيطان يساعد على أن يبخل الناس ملتمسًا لهم شتى المعاذير، فلا بد من عرض مشــهد حي نابض يقضي علــى ما يعتمل في بعض النفوس مــن بواعــث الشــح والتقتير، وأي مشــهد أبلغ من منظر رجــل يريد أن يتصدق خفية كيلا يراه أحد، فهو ينتظر سواد الليل ليستر إحسانه عن العيون، حتى إذا حان موعده خرج راصدًا الطريق ليضع الصدقة في كف أول قادم عليه دون أن يتبين أحد وجه صاحبه، وقد نفذ خطته حين قابله إنسان ما فأخذ نصيبه، ولكن المتصدق عليه فرح بما نال، فتحدث في النــاس أن رجلا من أهل الخيــر أعطاه، وكان الآخذ لصًــا، فجعل الناس يتعجبــون أن تهبط الصدقة على لــص! وجاء النبأ للمتصدق، فحمد الله على ما كان، وقد وقر في ذهنه أن الصدقة ضائعة الثواب، فحاول العودة كيــلا يضيع الأجر، ثم وقعت الصدقة في يد زانية، وتكرر الظن، فثلث بالعطاء، فوقعت الصدقة في يد غني لا يحتاج، وحار الرجل ماذا يصنع؟ فأنقذته الرؤية الصادقة من حيرته، وتلك الأمثال نضربها للناس.

الخلاصة:

نحن نعلم أن اليد العليا خير من اليد السفلى، وأن صيانة الوجوه بالعمل هي سبيل المؤمنين، ولكننا نعلم أيضًا أن من الناس من يحول المرض أوالجهل أو الزمانة بينهم وبين الكسب، فالصدقة لهؤلاء واجب مفروض لا مهانة فيه، لأن معطيها يلتمس أجرها من ربه حين يقرضه قرضًا حسنًا، وسيتضاعف له الأجر إذا أخلص النية، واختار الأجود الطيب مما يبذل، وارتاح لما أعطى، فما استشعر غير السرور والابتهاج.

كيف سما الإسلام بالنفوس؟

يظن بعض أساتذة الأخلاق أن قواعد السلوك الإنساني مستمدة من العرف العام للمجتمع وحده، ومازالت تتطور وتتبدل متأثرة بالتجارب الإنسانية حتى رست - أو كادت - ترسو على أصول راسخة أوحى بها الرأي العام الاجتماعي دون تأثر بهداية الأديان! وتلك نظرية براقة في وجهها الظاهر، إذ تعتمد على مقدمات وضيئة خادعة، ولكنها في صميمها الخالص لا تستند إلى منطق يستقر على أساس وطيد.

فنحن نجد في تاريخ الجماعات البشرية أعلامًا ضرب بهم المثل في السؤدد والنبل، وواتتهم السيادة من أنبه طريق للشرف والجاه، حتى ليظن من يتلقف أخبارهم الذائعة أنهم بلغوا في السلوك الإنساني قمة لا تطاول، وشأوًا لا يتاح! ثم تفحص ما يأتيك من أنبائهم المتداولة فتجد بعض ما لا يرضيك! وتحاول أن تجد تفسيرًا لذلك، فترى أن النفس البشرية مهما سما معدنها الخلقي بحاجة ماسة إلى هداية عليا تنحدر من السماء كما ينحدر المزن على الربا الظامئة فيحيي الأرض بعد ممات!

ونحن - في محيط التاريخ العربي - نجد بين أعلام الجاهلية أفذاذًا تفردوا بضروب من النبالة الخارقة في مجتمعهم، حتى سارت بأحاديثهم الركبان، ولقد كان العربي الحر في جاهليته يتجافى عن مواقع الملق والرياء فلا يمدح إنسانًا دون اعتقاد أصيل بما يقول، إذ إن كرامته الصريحة تأبى عليه أن يصف رجلًا ما بما ليس فيه، قادحًا أو مادحًا! فإذا اجتمعت الألسن العربية على تقدير إنسان ثم ضربت به المثل في السؤدد والشرف والحلم، فلن يكون هذا الإجماع أكذوبة ملفقة، ولكنه رأي تأصل في النفوس بروائع بارزة

مــن أخلاق هذا الســيد الماجد، يعرفهــا القريــب والبعيد، حتى لا تحتــاج إلــى تدليل، وهذه الروائع البارزة لا يمكــن أن تتاح عفوًا بلا تعــب، بل لابــد من تكاليف الســيادة، وتبعات الوجاهــة حتى تبلغ بصاحبهــا ما يريد، إذ إن الأمر يطرد دائمًــا على نحو ما قال العربي القديم:

وإن ســيــادة الأقـــــوام، فــاعــلــم
لــهــا صـــعـــداء مــطــلــبــهــا طــويــل

وكان قيس بن عاصم المنقري من أنبه السادات ذكرًا، وأخلدهم مأثرة، فهو شــاعر قــوي العارضة، وهو فارس مقــدام لا يتراجع دون غُنــم، وهو كريم أريحي يتدفــق بالعطاء حتى لتأتــي إليه الوفود من أقصــى الجزيرة واثقة في فتوته وأريحيته! ثــم هو بعد ذلك مضرب المثــل في الحلــم، والحلم جمــاع الأخلاق وســيدها الأمثل يحتاج صاحبــه إلــى ركائز مــن الفضائــل المختلفة تــؤازره وتســانده حتى يعتصم بسيد الأخلاق.

ومــا زلنا حتــى اليــوم - إذا اضطررنا إلى الاستشــهاد في مواقف التأبيــن عنــد فقد عظيم أو رجــل زعيم - لا نجد فيمــا نتمثل به من الشــعر أفضل مما اشتهر في رثاء قيس بن عاصم المنقري، إذ يقول ناعيه:

عــلــيــك ســـلام الله قــيــس بــن عــاصــم
ورحـــمـــتـــه مـــا شـــاء أن يــتــرحــمــا

تــحــيــة مـــن غـــادرتـــه غـــرض الـــردى
إذا زار عـــن شــحــط ديـــارك سلما

ومـــا كـــان قــيــس هــلــكــه هــلــك واحــد
ولـــكـــنـــه بـــنـــيـــان قـــــوم تــهــدمــا

ولا نجد في مجال التنويه به - أفضل من قوله الرسول ﷺ، حين قدم قيس إلى المدينة معلنًا إسلامه: هذا سيد أهل الوبر، ثم بسط له رداءه الشريف، فجلس عليه تكريمًا لما ذاع من فضائل كرمه وأحاديث أريحيته، وكان الرسول ﷺ أعرف الناس بسادات العرب، فلا يعقل أن يصف رجلا بما ليس فيه! وكانت أريحية الكرم وهمامة النفس وعلو الهمة مما تتنزل لديه ﷺ أكرم منزل، ولأجلها احتفل بقيس في مجلسه! وهو احتفاء سجلته كتب الحديث والسيرة المطهرة، فحاز شرف الخلود!

وثانية نقولها في مجال التنويه بقيس: تلك هي شهادة الأحنف بن قيس، وكان - رضي الله عنه - هو الآخر مضرب المثل في الحلم، كما هو كقرينه قيس بن عاصم من معادن العرب النفيسة التي ازدادت رفعة ووضاءة بنور الإسلام! وقد قيل للأحنف: من أين أخذت هذا الحلم؟ فقال في مباهاة: ما تعلمت الحلم إلا من قيس بن عاصم المنقري، قيل له: وكيف ذلك يا أبا بحر؟ فقال الأحنف: لقد قتل ابن أخيه ابنًا له، فأتي إليه بابن أخيه مكتوفًا يقاد إليه، فقال في هدوء: أذعرتم الفتى، ثم أقبل عليه فقال في أسف: يا بني، نقصت عددك، وأوهنت ركنك، وفتت في عضدك، وأشمت عدوك، وأسأت قومك ثم سكت مليًا ونظر إلى من حوله فقال: خلوا سبيله واحملوا إلى أم المقتول ديته، وانصرف الجمع وما حل قيس حبوته ولا تغير وجهه.

هذا الهدوء الرزين لا يتسنى لغير حليم فسيح الصدر، تعود أن يكظم غيظه، حيث لا يستطيع أقوى الأقوياء أن يسيطر على نفسه! ولقد هال الأحنف - وهو الحليم الراسخ - أن يرى الوالد فلذة كبده تتشحط في دمائها ثم لا يحرك ساكنًا، ولو كان المقتول ابن أخيه

والقاتل ابنه لقلنا إن الرجل الداهية قد استجاب إلى نداء الدم في مسارب قلبه، وتظاهر بالحلم لينقذ فتاه من القصاص، ولكن القتيل فلذة كبده! وذلك ما راعٍ الحاضرين! وما جذب من الأحنف كل انتباه حتى اتخذ قيسًا أستاذًا يستهديه!

هذا السيد العربي العريق بما تأثل في نفسه من شمائل عالية صار بها موضع السيادة في قومه، وصاحب السيرورة في القبائل والبطون! كانت أخلاقه المعترف بسموها في حاجة ماسة إلى هداية السماء، وقد جاء الإسلام لينقذه من الظلمات إلى النور، لأن أخلاق الجاهلية لدى السادة مع ما اكتمل لهم من عناصر الفتوة وركائز الحلم وذخائر النبل كانت في حاجة قوية إلى من يسمو بها، فهي إن اكتملت في موضع، فقد نقصت في موضع ولن تكون الأخلاق كاملة تامة دون أن تتشح بقلادة الإسلام، ولك أن تسألني عما كان ينقص هذا الشريف الحليم الماجد من عناصر الإنسانية النبيلة التي كملت لديه بهداية محمد ﷺ ولي أن أجيب بما يرضيك:

كانت الغيرة على النساء في المجتمع العربي من أعنف العواطف البدوية وأحدها اضطرامًا، فما تسقط فتاة في يد مغير حتى يتلظى أهلوها حقدًا وحفيظة، وحتى يعبوا أكبر القوى لإنقاذها، وقد تشتعل الحرب بين قبيلتين مرارًا بسبب سبية أسرت في غيبة ولي أمرها، وكان مما امتحن به قيس بن عاصم أن أغار فارس من قبيلة «يشكر» على خيام بني سعد، فسبى منهم نساء، وساق أموالا، وكان في النساء «رميم بنت جندل» وهي ابنة أخي قيس بن عاصم! فجاء الخبر في تميم بأن ابنة أخيه قد سيقت أخيذة في بني سعد، وأصبحت حليلة لفارس يشكري يقال له عمرو! فتعاظم قيسًا الأمر، وغضب على بني سعد أن خارت عزائمهم دون العدوان فلم يدفعوا المغيرين

حتى اغتصبوا النساء، وسلبوا الأموال، ثم أعد عدة الرحيل، وسار مغيظًا إلى بني يشكر يسألهم رد الأخيذة، فقابله صاحبها بهدوء وتحفظ، وأعلن أنه اصطفاها لنفسه عن اختيار ورضًا منها، وله أن يسألها، فإن رضيت مفارقته قدمها إليه طائعًا ! واستمع قيس إلى صاحبه فوقع حديثه منه موقع الرضا، واطمأن إلى أن ابنة أخيه لن تخذله في مشهد القوم، وسترجع معه إلى ديارها مصونة مكرمة، ولكنه فوجئ بها تختار عمرًا اليشكري وتفري جبينه بالعرق، ثم ارتحل مغضبًا حنقًا تهتاج في صدره بواعث الثورة والحفيظة، وآلى على نفسه أن يئد كل بنت تولد له كيلا يضطر إلى أن يقف هذا الموقف الكريه، ورأى الناس سيد تميم يئد بناته، فاتبعوه بغير إحسان، حتى كانت تميم صاحبة السبق في هذا المضمار، وبين خيامها وئدت الكثرة الكاثرة من البنات ! ولم لا وقيس في حفيظة واضطرام.

لم يكن قيس في أطواء نفسه يحس بشاعة جرمه ! فهو يرى الوأد كرامة لقبيلته وعزة لنفسه، وكان له من السيطرة والرئاسة ما جعل قومه يعتقدون أنه يأتي فضيلة لا رذيلة، وقد كان تقدمه في السيادة والشرف المتعارف عليهما بين القبائل مما يجعل جريمته محمدة، إذ إن العرف الاجتماعي قد جرى حينئذ على قبول هذا الجرم، فعده عملا مشروعًا إن لم يكن مستحبًا مرغوبًا ! ! وإن شذ عن هذا العرف السائد أفراد رزقوا سلامة النظرة، وقوة البصيرة، فقد روى التاريخ أن «صعصعة بن ناجية» جد الفرزدق كان يستهجن صنيع قيس، ويراه سبة نكراء، وقد بادر فافتدى إحدى بناته من الوأد، واشتراها كي تصبح في كنفه دون أن تقع أخطاؤها - إن حدثت - على قيس بن عاصم ! وهي همامة نفس تنبئ عن نظر بصير !

ثم جاء الإسلام وأشرق نوره فمنع الموءودة أن تقتل وسأل عنها :

﴿ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾

(التكوير : ٩)

واضطر قيس بن عاصم أن يراجع نفسه فيما صنع، وأخذت هداية الدين تكشف عن العيون غشاوات كثيفة حجبت أشعة العقل ورانت على الفطر السليمة فطمست لآلئها، واحتاجت إلى من يزيل عنها الضباب، فأخذ بنو تميم يتنبهون إلى ما جرهم قيس إليه من شطط جموح، ورأى قيس أنه كان نائمًا وأن الإسلام قد أيقظه من ضجعة طويلة الرقاد، فتعاظمه ما أسلف من جرائر، ووفد على رسول الله ﷺ مسلمًا، فهش له صاحب الخلق العظيم مرحبًا، ثم رأى قيس أن يعترف بزلته في حديث دار بينه وبين عمر بن الخطاب، فقوبل بالاستنكار، وأشار عليه عمر أن يعتق رقبة عن كل واحدة وئدت! ومع أن الإسلام يجب ما قبله، فقد أراد الفاروق بذلك أن يريح قلب قيس من خواطره، والرجل سيد واسع الثراء وفى عتق الرقاب ما يزيل الشكوك، ويطمئن النفوس.

ولقد تناقلت الكتب حديث قيس بن عاصم عن الموءودة فى حضرة رسول الله ﷺ، ونحن ننقله كما جاء في مصادره إيثارا لبلاغته، وتسجيلًا لموقف دقيق تتخذ منه العبرة البالغة إذا وجدت المعتبر.

«حدث الكلبي قال: وفد قيس على رسول الله ﷺ، فسأله بعض الأنصار عما يتحدث به في الموءودات اللائي وأدهن من بناته في الجاهلية، فأخبر أنه ما ولد له قط بنت إلا وأدها، ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: إني أخاف سوء الأحدوثة والفضيحة في البنات، فما ولدت لي بنت إلا وأدتها، وما رحمت منهن موءودة إلا بنية كانت

لـي ، ولدتها أمها وأنا في سـفر ، فدفعتها إلـى أخوالها فكانت فيهم حتى قدمت ، فسـألت أمها عما تم في حملها ، فأخبرتني أنها ولدت ولدًا ميتًا .

ومضى على ذلك سنون ، حتى كبرت البنت ويفعت ، وكنت عند أمها ذات يوم فرأيتها ، وقد ضفرت شعرها ، وجعلت في قرنها شيئًا من خلوق ، ونظمت عليه ودعًا ، وألبسـتها قلادة جزع ، وجعلت في عنقهـا مخنقة بلـح ، فقلت : من هذه الصبية ؟ لقـد أعجبني جمالها ولبسـها ، فبكت وقالت : هذه ابنتـك ، كنت قد أخبرتك أني ولدت ولدًا ميتًا ، وجعلتها عند أخوالها حتى بلغت هذا المبلغ ، فأمسـكت عنها حتى شـغلت أمها ، ثم أخرجتها ، فحفرت لها حفرة ، وجعلتها فيهـا ، وهـي تقـول : يا أبه ! مـا تصنع بـي ؟ فجعلت أقـذف التراب عليها وهي تقول : يا أبه ، أمغطي أنت بالتراب أم تاركي أنت وحدي ومنصرف عني ؟ وكم حاولت أن تزيح عن لحيتي ما علق بها من أثر التـراب ، بيد أني كنت أقـذف التراب عليها وأهيلـه ، حتى واريتها وانقطع صوتها ، فما رحمـت أحدًا ممن وأدت غيرها ، فدمعت عين النبي ﷺ ثم قال : إن هذه لقسوة ، إن من لا يرحم لا يرحم .

هذا ما ذكرته الكتب من أمر قيس بن عاصم ، ولو كان من سـوقة النـاس ، لقيـل عنـه أعرابي قدم غليـظ القلب لا يبالي مـاذا يصنع ؟ ولكنه كان رجلًا ذا مجادة ، يهتز للأريحية ، ويسـعى للمحمدة ، وقد ساد قومه بمآثره ، وجرى المثل بمحامده حتى صار قدوة رجل عظيم كالأحنف بن قيس !

وإنسان يضعه الناس هذا الموضع لابد أنه كان ذا ذخائر قيمة من الفضائل ، فإذا اقترف وأد البنات مع ذلك فقد قدم الدليل على فساد

ما اصطلح عليه العرف الاجتماعي العام، ونادى بأفصح بيان بأنه لابد لدنيا الناس من هداية الله، وقد عذره المنصفون فيما كان يأتيه بعد، إذا أقلع عنه واستغفر ربه ونبيه، وبذلك أسدل الستار على ماض يتأسف على مآسيه، ويود أن يمحوه الحاضر بالندم والمتاب، فظل سيد القوم في إسلامه كما كان السيد في الجاهلية، ولكن سيادة الإسلام كانت نقية ساطعة، وسيادة الجاهلية كانت ذات وضر كريه.

وفد قيس بن عاصم ذات يوم على أبي بكر الصديق، فسأله أن يصف نفسه، فقال أما في الجاهلية فما هممت بريبة قط، ولم أر إلا في خيل مغيرة أو نادي عشيرة، أو حامي حرمة، وأما في الإسلام فقد قال الله -تعالى-:

﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾

(النجم: ٣٢)

وموضع الشاهد من هذا القول أن الرجل لم يكن يعتد الوأد ريبة، ولم يجل بخاطره أنه جريرة تلطخ فاعلها، ولو فطن إلى ذلك لتحاشاه، فهو في صميم نفسه طالب سؤدد وعاشق أمجاد، بين أناس صرحاء لا يصفون فردًا بغير ما يستحق من الخلال، وقد تغنى قيس بمآثره فيما روى عنه من الشعر بديوان الحماسة، فبرأ خلقه من الدنس، وعقله من الأفن، وفاخر بأرومته الأصيلة، كما باهى ببلاغته قومه وشيعته، ثم تمدح بأريحته العالية حين يحفظ جاره ويحميه دون أن يكلف نفسه البحث عن بعض مثالبه، فتلك سبة ترديه، وكان مما قال:

إني امرؤ لا يعتري خلقي

دنس يفنده ولا أفن

مـــن مــنــقــر فـــي بـــيـــت مــكــرمــة

والــغــصــن يــنــبــت حــولــه الــغــصــن

خــطــبــاء حــيــن يــقــوم قــائــلــهــم

بــيــض الـــوجـــوه مــصــاقــع لــســن

لا يــفــطــنــون لــعــيــب جــارهــم

وهـــم لــحــفــظ جـــواره فــطــن

ولعمـري إن قال الرجل هذه الأبيات في الإسـلام فقد صدق ، أما إذا سـبقت بهـا الجاهلية ، فقـد كان في حاجة إلى مـن يقول له : إن عقلك لم يبرأ من الأفن بعد ، وستجد سلامته الصحيحة حين تتخلق بآداب القرآن وتستمع مطيعًا إلى رسول الله ﷺ .

كاتب فاضل يتحدث عن الإسلام

يفرح القارئ حين يقرأ كتابًا منصفًا لأحد المخلصين من الكتاب، في كل لغة وعن أي دين، لأن خلق الإنصاف ينبئ عن معدن ثمين، ويوحي بسمو نادر في الاتجاه الإنساني، وما قامت الحروب وتطاحنت الجيوش إلا حين فقد الإنصاف من النفوس، وتغلبت مساوئ الجحود والنكران على الملأ، فأصلتهم نارًا حامية الأوار، أما إذا قدر للإنصاف العادل أن يسود فلن تجد بين الناس سوى الطمأنينة والاستقرار.

وقد كان المنصف الغيور الأستاذ واصف غالي ـ طيب الله ثراه ـ وزيرًا للخارجية المصرية في عهد وزارات مختلفة، وكان عظيم الوطنية، وعالي الروح، صادق النظرة، وقد ضحى بنفسه حين قام بأعمال جريئة ضد الاحتلال البريطاني حتى حكم عليه بالإعدام، ولكن خوف الاحتلال من اندلاع لهيب الثورة قد أرجأ التنفيذ، ثم كتب للرجل الباسل أن يتبوأ أعظم المراكز الدبلوماسية في بلده، وأن يكون مجال التقدير بين الزعماء والأدباء حتى أجمع مجمع اللغة العربية بمصر على انتخابه عضوًا ينضم إلى الخالدين من رجاله، ومع تهالك الكبراء على عضوية المجمع، فقد أباها واصف غالي وأرسل استقالته، لأنه يؤثر العمل في صمت دون ضجيج...

وقد كانت اللغة الفرنسية لغة الكاتب الثانية إذ درس آدابها دراسة مستفيضة، وقرأ في كتبها ما يسطره الغلاة من رجم بالغيب حين يرجفون بالعرب والإسلام فينسبون كل تأخير في الدول العربية إلى الإسلام، ويعلنون أنه دين صحراوي لا يعيش في القرن العشرين، حيث المدنية المزدهرة، والحضارة المفكرة!

وقد قرأ الأستاذ الراحل كثيرًا مما يأفك به القوم، فكتب

الفصـول الضافية، والكتـب المتتابعة باللغة الفرنسـية في إنصاف العرب والإِسـلام! ليقرأها هؤلاء المغرضـون فيعرفوا وجه الحقيقة فيما يهرفون به من ادعاء، ولا شـك أن آثار الرجل الفاضل قد بلغت بعـض ما يريـد من تصحيح الخطأ، وتقويم النظـر، إذ أيدت بالأدلة الدامغة والروايات الصحيحة، والأمثلة الناطقة بالحق، مما لا يجرؤ عاقل على المماراة فيه.

وكان من الأمور السـارة أن يترجم بعد وفاته باللغة العربية كتابه الجليل «تقاليد الفروسية عند العرب» ليشهد به قراء الأدب العربي إحدى صحائف الحق والخير والجمال، يسطرها قلم نزيه منصف، سمع اللغو الآفك فدحضه بالحق الصريح.

والحديـث عن الفروسـية مجـال صادق لإِنصاف الإِسـلام، فقد ألفـت كتب أوروبيـة كثيرة تقدس الفروسـية الغربيـة وتراها مثالاً عاليًا للخلق الأوروبي، لا يلحقه مثال آخر لدى الشعوب المختلفة.

هكـذا تواطأ أكثـر الكاتبين عن الفروسـية منكريـن أثر العرب والإِسـلام في خلق الفروسية المترفعة النبيلة، وجاحدين أثر الشرق المضطهـد فـي تقويم الغـرب وتهذيبـه! مـع أن التاريـخ الصادق للفروسـية الأوروبيـة، يعلن أن فروسـية الغرب كانت في نشـأتها الأولى فروسـية جبروت وإقطـاع، إذ يعمل كل نبيل على المحافظة على سـلطانه فيضم حوله نفرًا من الفرسـان لا همّ لهم غير الاهتمام بشـئون النبيل، ثم تطورت الفروسـية إلى تقليد ديني حين خرجت كتائب الحروب الصليبية . . .

وفي كلا العهدين لم تكن للفروسـية الغربيـة آداب خلقية تتجه إلى النبل والتسـامح والوفاء والشـرف! حتى وقف الأوروبيون على شمائل العرب والمسلمين، فرأوا لدى فرسانهم من قصص المروءة

والبطولـة، والعفـة والتسـامح، مـا لفـت أنظارهـم إلى الفروسـية الحقيقيـة، فهي في لبابها الخالص فروسـية خلـق وآداب لا همجية غابات ووحوش!!

هنا كان المسـلمون أصحاب الفروسـية الحقيقية، وأسـاتذتها النبلاء الذين جعلوا البطولة الحق بطولة شـرف ووفاء لا بطولة غدر ودماء.

بهـذه الحقيقة الصريحة تنطق فصول الكتاب مؤيدة بالشـواهد المواثل، وقد أحسـن الأستاذ واصف غالي التعبير عن هذه الحقيقة حين قال «ص٢٦»:

«إن هـؤلاء «يريد المسـلمين» إنما هـم أبطال كرام فـي معاملة الخصم، سـرت إليهم الرأفة وأصبحوا أشـد إنسـانية، وهكذا تعلم أولئك الفرسان في مدرسة العرب أن يكونوا سمحاء كبار النفس في مخاصمة العـدو، لقد رأوا كيف يرعى العهد أولئك الذين لم يتلقوا المعموديـة، فتعلموا أن يصونوا جميع عهودهم لا تلك العهود التي قطعوها رسـميًا وأقسـموا على الوفاء بها فحسـب، ورأى الفرسان لـدى أعدائهم ذلك الازدراء العيوف للثروة والغنى، ولمسـوا فيضًا مـن كرم ضيافتهم، وجودا لم يتخيلوا مثلـه، فتعلموا أن يغدقوا في صدقاتهم وأن يسخوا في حياتهم، ورأوا رعاية العرب لحرمة النساء، بل ولحرمة أقلهن شأنًا، أو لم تصبح بعض الجواري أميرات، فتعلموا الشـهامة والرقة لا نحو السيدات النبيلات فحسب، بل نحو النساء جميعًـا علـى اختلاف طبقاتهـن، وهكـذا تهذبت أخـلاق العصور الوسـطى الجافة وتطورت عندما اتصلت بالعبقرية العربية، فلانت ولطفت ورقت وسـمحت، وذلك في عبـارة موجزة هي: أثر العرب في الفروسية الغربية».

وإذا كان عماد الفروسية العالية هو النبل الخلقي الأصيل فإن الأستاذ واصف غالي قد بسط من وقائع التاريخ ما يؤكد نبل الفروسية الإسلامية، فضرب للأمثلة على ذلك ببعض ما ذاع واشتهر في سجلات العرب والإسلام، فهو يذكر مثلًا سماحة الأمير الأندلسي عبدالرحمن الثالث حين أذن لعدوه «سافن» أمير ليون أن يفد إلى قرطبة فيستشير أطباءها المسلمين في علاجه ثم يرجع معززًا محفوفًا بالرعاية الإسلامية في حين يستضيف ملك قشتالة المسيحي أبا سعيد ملك غرناطة، فتعجبه جواهره، وإذ ذاك تدفعه الأنانية اللئيمة إلى قتله غدرًا وهو في ضيافته ليستولي على ذهبه وفضته!

ثم يستطرد المؤلف إلى موقف ملك مراكش المسلم من الملك ألفونس الحكيم حين استغاث به مستنصرًا، فعبر إليه الملك المراكشي البحر ملبيًا نداءه عن شرف، وقد أراد ألفونس أن ينزل عن منزلة الصدارة والشرف لهذا الباسل الذي خف إلى نجدته، فقال له الملك المسلم ما نصه: «إن لك مجلس الشرف ما دمت مغلوبًا على أمرك، ولقد أتيتك لأعينك على تأديب عاق غادر؟ فمتى أديت هذا الواجب وأصبحت قويًا مهابًا، نازعتك كل شيء وناصبتك للعداء من جديد».

ولا يترك المؤلف موقف الأريحية والبطولة لدى غلوة الإسلام في الحروب الصليبية، إذ يتحدث فخورًا عن موقف نور الدين محمود حين امتنع عن انتهاز فرصة موت «بودان» فلم يشأ أن يستعيد عسقلان إذ ذاك قائلا: «إني لو فعلت ذلك لأهدرت قيم الإنسانية، واستهنت بآلام شعب يبكي مولاه، ولأخللت بشرفي الحربي حين أهاجم منكوبين لم يتأهبوا للدفاع عن أنفسهم، ثم يقرن ذلك بما

فعله ريتشارد قلب الأسد عندما دفعه جبنه إلى إصدار أمره بذبح أسرى عكا سنة ١١٩١ م ، رغم ما نصت عليه المعاهدة من تأمين حياتهم وحرياتهم ! !

وقارئ كتاب الأستاذ واصف يلمس الروح الإسلامية لدى أبطال مسلمين لا يدري كيف بلغت مثاليتهم الرفيعة هذا المبلغ من التعاطف الإنساني ! هذا الذي ماتت لديه رغبات الانتقام والثأر وعاشت معه نوازع الصفح والإغضاء ! وشيوع هذه المثالية النادرة بين المسلمين في الشرق العربي وفي الغرب الأندلسي ، دليل لا يخطئ على أن معين الهداية لديهم قد جمعهم على أندر خصال المثالية والنبل .

وإذا كنا نعرف ما اقترفه الصليبيون حين فتحوا بيت المقدس من استئصال العجزة من النساء والأطفال والشيوخ حتى كانت الخيل تخوض إلى بطونها في مسيل من الدماء ، فإننا نقرن هذه الوحشية الدنسة بنماذج مختارة مما سطره الأستاذ واصف ، وهي من التيقن والثبوت بحيث اعترف بها كبار الخصوم من مؤرخي الغرب ، ولعلهم كانوا يمسحون عرق الخزي عن وجوههم حين يقرنون توحش فرسانهم الصليبيين بسماحة المسلمين العادلة ، أو أصاخوا إلى الحق مجردًا عن الأهواء والظنون .

ففي ميدان الحروب الصليبية ، نجد من الأمثلة الكثيرة فصلاح الدين الأيوبي يظهر روح التسامح نحو خصيمه ريتشارد قلب الأسد حين يسمع بمرضه ، فيرسل إليه ما طلبه من الدواء والكمثرى والخوج والثلج وهو يهذي في سكرات الحمى ، متناسيًا ما صنعه بأسرى عكا من قبائح ، كما نجد الملك الكامل يقابل قائد الحملة الصليبية على دمياط « جان دي برين » فيجده متفطر القلب من

البكاء، وإذ ذاك يسـألـه عن سـر بكائه فيقول في ضراعة : من حقي مـولاي أن أبكي وقد رأيت الشـعب الذي عهـد الله به إلى يهلك من البـرد والعطش والجوع، فيتأثر الملك الكامل ويرق رحمًا، ثم يأمر بإرسال ثلاثين ألف رغيف للصليبيين، ويفعل بضعة أيام متتاليات ! !

أمـا في ميدان أوروبا بالأندلس فيذكر الأسـتاذ واصف غالي عنه مـن نوادر الوفـاء والنبل ما يفـوح عبيره في صفحـات الكتاب دالا علـى كمال المروءة، ونبالة الأريحية، ومن ذلك على سـبيل المثال مـا روي عـن المنصور بن أبي عامر حين حصر يومًا في شـعب ضيق فرقة كبيرة من جنود الأسبان وأصدر إليهم الأمر بالتسليم، ولكنهم صممـوا على الهلاك والاسـتئصال دون أن يجيبوا إلى الاستسـلام ! فأمـر المنصور في مروءة أن يفتح لهم الطريق، رافعًا عنهم الحصار، مؤثـرا في همامة نادرة أن يرسـل لعدوه نجدة كبيـرة، على أن يأمر باستئصال هؤلاء، وقد وقعوا في المأزق الكريه، ولقد حكى المؤرخ الأسـباني موسـدن عنه أنـه كان يدمر المـدن بالحديـد والنار حين تنهض لمقاومة جيوشـه، ولكنه لم يسـمح بأهون شر يحيق بمدينة تستسلم دون عصيان !

أما موقف حاكم قرطبة المسلم من زوجة ألفونس الثامن فقد كان نـادرًا حقًا ! إذ إنه اتجه إلى غزو طيطلـة ردًا على مكيدة ألفونس في حصـار بعض المدن الإسـلامية، وندع الأسـتاذ واصف يتحدث عن هذه الخارقة النادرة ! إذ يقول عن القائد الشهم :

« ودار فـي حذر حول معسـكر الصليبيين وأمعن في السـير حتى بلغ أسـوار طيطلـة حيث كانت الملكـة « بيرانجيـر » تقبع في عقر دارها وتعوزها وسـائل المقاومة، فخطر لها وهـي في تلك الضائقة أن ترسـل إلـى القائـد العربي من يهيـب به أنه لـو كان يريد مقاتلة

الصليبيين فليذهب إليهم تحت أسوار العريجة حيث الجيش، أما أن يشن حربًا على امرأة فذلك ما لا يجدر بفارس باسل كريم أن يقدم عليه، ونجحت خطتها فاستسلم القائد العربي المدقق إزاء هذا الدفاع الغريب، واعتذر عن خطئه، وود لو يحظى بتحية الملكة قبل رحيله، فطلعت عليهم «بيرانجير» وسط حاشيتها فوق الأسوار ومر أمامها الفرسان العرب وهم آخذون في الرحيل، وكأنهم في مباراة، بينما كان في هذا الوقت نفسه وفي أثناء هذا الاحتفال الودي قد استولى ألفونس على على قرية العريجة».

هذا ومثله يثبت نبالة الفروسية في مضمار الحروب، أما ميادين الفروسية الأخرى فقد بلغ بها فرسان الإسلام مبلغًا ما زال مضرب المثل في صحائف التاريخ! وإذا كانت فروسية أوروبا ترى احترام المرأة وتقديرها أنبل ضروب الفتوة والأريحية، فلننظر مع الأستاذ واصف غالي إلى مكانة المرأة في الإسلام.

لئن كان إنصاف الإسلام للمرأة مما يفهمه دارس الشريعة الإسلامية بوضوح، فإن أعداء الإسلام من غلاة المتعصبين يحرفون الكلم عن مواضعه، إذ يزعمون أن الإسلام مصدر تأخر المرأة وانحطاطها، وقد اضطر الكاتب إزاء ذلك أن يذكر أن الدين المفترى عليه قد منح المرأة منذ القرن السابع الميلادي حقوقًا وامتيازات مازالت أوروبيات القرن العشرين ينزعن إليها، إذ إن المسلمة في شريعة الإسلام أهل لأن ترث وتشهد في القضاء، ولها أن تزاول التجارة فتبيع وتشتري وتوصي دون حاجة إلى رضا الزوج.

ثم أصاب المؤلف مقطع الصواب حين قال «ص١٥٤»: «ولكنا ينبغي حين نعترف بأن ما ينسب إلى الإسلام من مسئولية تأخر المرأة، ألا نخلط هنا بين الشريعة الإسلامية، وبين التأويلات

المغرضة المشئومة التي تفتقت عنها عقول الناس في عصور الفساد والانحطاط، فقد ظهر التطبيق الخاطئ على المبادئ، وقدم العرف السقيم على تعاليم القرآن، ومن هنا راح الناظر إلى العادات المنحرفة يتهم الدين زورًا وبهتانًا».

وهذا كلام صريح يدمغ الذين يحكمون على المسلمين ببعض أعمال الجهلة من المنتسبين إلى الدين دون الرجوع إلى مصادر الإسلام الصحيحة من كتاب وسنة وإجماع وقياس، وقد كرره المؤلف بعبارات مختلفة تزيد دفاعه المنصف قوة ورسوخًا، وكان من أصوب ما قاله في ذلك (ص١٤١):

«ولما كان الرجل هو الأقوى فقد استسلم لغرائزه الأمارة بالسوء ومضى في عصور الانحطاط يردع ويذل تلك التي كان من حقها عليه أن تصبح رفيقته، وواصل ذلك حتى جعل منها كائنًا يقل عنه قدرًا، لا شخصية له ولا لون من ألوان الكرامة، وحينما نبه الرجل صوت ضميره يؤنبه على جوره وطغيانه تسلح بالكتاب الشريف، فطفق يئول ويعلل ويحلل ويقسو على النصوص في تفسيرها ليثبت أنه يصدع بأمر رسول الله، وهكذا حدث يوم راحت أوروبا تتساءل عن تخلف المرأة المسلمة أن كان الجواب معدا، وكان من البساطة بحيث أقرته في حماس: جواب يزعم أن الإسلام هو السبب الوحيد في انحطاط المرأة وتخلفها، وذلك لما يتيحه للرجال من تعدد الزوجات ومن الطلاق وما يفرضه على النساء من الحجاب والانزواء».

وكان هذا الإجمال السريع بحاجة إلى تفصيل كاشف، فكتب الأستاذ واصف غالي فصولا قوية تتحدث عن المرأة كما اعتبرها القرآن، مؤيدًا أقواله بأحاديث الرسول وأحكامه الثابتة بالسنة

الصريحــة ، وقد بســط مســألة تعدد الزوجات بســطًا عــادلا يعرفه فقهاء المسلمين ويشهدون بصحته دون نقد ، ثم تعرض للطلاق في الإِســلام موضحًا أســباب مشــروعيته وطرق تلافيه إذا وجد للتلافي العــادل مذهب معقول ، ولم يغفل القول عن الحجاب في الإِســلام ، ضاربًا الأمثلة بما وقع من أمثال عمر وعائشة ، والجديد علينا معشر المســلمين في ذلك هــو المقارنــات اللطيفة التي عقدهــا المؤلف بين المرأة المســلمة والمرأة الفرنســية في القرن الثاني عشر ، فقد نقــل من تقاليد المجتمع الأوروبي إذ ذاك مــا يندى له الخلق خزيًا ! أجــل نقل الأســتاذ واصف عن الكاتب الفرنســي مــا روي مثل قوله (ص ٩٠) :

« كثيرًا ما تذكر قصص الفروسية أن العرف كان يقضي بأن تعدم المرأة أو الفتاة التي تتهم بسوء السيرة ، ولقد كان من النافع في أثناء القرن الثاني عشــر إلى الرابع عشــر وهي عصور اضطراب وانحلال في العائلة - أن يوضح الآباء للأبناء عبرة ذلك العقاب الذي خص به الأجداد الحب الآثم ، ويبدي المؤرخون والشعراء أساهم وحسرتهم علــى حيــاة ربات هــذه العصــور ، فهنا فتيــات يتبعن عشــاقهن إلى خيامهن ، وهناك ســيدات عريقات يستضفن فرسانًا ويصلنهم كلما أغفــى أزواجهن ، ولقــد كانت تتردد في كل مــكان أغنية تقول : تبًا للزواج الذي يدوم شهرًا أو شهرين طويلين » .

ثم لينقل بعد عدة ســطور عن الكاتب الفرنســي (ب . ماير) قوله : « كان التدليك أثناء الرقاد عنصرًا من كرم الضيافة قديمًا ، وكانت شئون الضيافة من نوم واســتحمام متروكة للنســاء ، ولكننا نستطيع أن ندرك كيــف أدت تلك الحفاوة التي كانت في الأصل عناية صحية خالصة إلى العبث في مجتمع كان أقل من مجتمعنا تحرجًا إزاء بعض الأمور » .

السؤال الذي يمكن أن نوجهه إلى المسيئين إلى الإسلام باتهامه الصارخ بظلم المرأة من ناحية الحجاب : أيهما أشرف للمرأة : أن تحتجب عن الأجنبي المتوقح ؟ أم تقوم له بالتدليك والاستحمام كما كان ذلك تقليدا تتبعه نساء القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر دون استحياء !

وفي مجال الاستشهاد بعظمة المرأة العربية من جاهلية وإسلامية أفاض المؤلف الكبير في سرد أمثلة ذائعة عن أم سيار ، وليلى العفيفة ، وبهيثة بنت عوف ، وزينب بنت محمد ، وأسماء بنت أبي بكر ، ثم يمضي باستشهاده إلى مضارب الخيام في القرن العشرين ، فينقل عن شهامة المرأة العربية في الصحراء ما سجله مدونو الرحلات من الأوروبيين ، وكم كان جميلا منا أن نقدم للقراء بعض هذه النوادر الرائعة في دنيا البطولة والشرف والكرم والأريحية للمرأة الإسلامية حديثًا وقديمًا ، ولكن ضيق المجال يدعو إلى التنويه الموجز دون التحليل المقنع ، وفي كل ما قدمه كتاب الفروسية ما يجب أن يقرأه أبناء الإسلام فخورين .

أما الحديث عن الوفاء بالعهد والكرم وحماية الضيف ، فتلك ثلاثة فصول قد ابتدأت بصفحة ٢١٠ إلى صفحة ٢٨٢ ، وكل سطر من هذه الصفحات جدير بالقراءة إذ هو يضيف إلى الفائدة العلمية لذة مشوقة حين يروي طرائف الشجاعة والكرم والعفو والمروءة لدى العرب في الجاهلية والإسلام ! ويضرب الأمثلة بروائع حنظلة بن عوف ، وامرئ القيس ، وحاتم ، وحاجب بن زرارة ، وهانئ بن مسعود ، وكليب في الجاهلية ، وبمواقف على بن أبي طالب ، وعمر بن الخطاب ، وعبدالله بن جعفر ، وابن عباس ، وعبدالملك بن مروان ، والكميت الأسدي ، ومعن بن زائد ، والرشيد ، والمعتصم ، وسواهم

مــن أعــلام التاريخ ! وهي طرائف مغرية تطلــب لذاتها حتى لدى من لا يعنــون بربطها ربطا وثيقًا بأخلاق الإســلام، فكيف إذا كانت في حقيقتها الأصلية اســتجابة لدين فاضل يســمو بالخلق ويحث على الرحمة والعفو والإيثار !

لقد برهن المؤلف الكبير على إخلاصه العظيم للحقيقة في ذاتها حين قــدم كتابه المنصف لقراء اللغة الفرنســية، فآتــى أكله، وبلغ بعــض مــا يريد من تصويب الخطأ ومناقشــة الحجــة، حتى قال عنه الدكتور طه حســين كلمة الحق صريحة مخلصة ! إذ أعلن في مقدمة الطبعة العربية مثل قوله:

(لقــد قــرأ المنصفون مــن الغربيين هــذا الكتــاب فأصلحوا من آرائهم، وترجمه الأستاذ أنور لوقا ترجمته هذه المثقفة، وسيقرؤها العرب فيعرفون أن صاحب هذا الكتاب لم يكن كما كان يظن بعيدًا عــن اللغة العربيــة وآدابها، وإنما كان قريبًا منهما أشــد القرب آلفا لهما أحســن الإلف وأبقاه، وأنه قد أبلى في خدمة الإســلام والعروبة بلاء لا يحســنه إلا أولو العزم والإخلاص في حب الوطن، إخلاصًا لا تشوبه شائبة من إيثار للنفس، أو حرص على الاعتراف بالفضل).

ومما لا شك فيه أن نفرًا كثيرًا من قراء العربية قد قرءوا الكتاب كمــا توقــع الدكتور وقد عرفوا أن المؤلف مــن أولي العزم الصادق، وقــد أبلى في خدمة العروبة والإســلام بكتابه أحســن البلاء ! ولعلنا بمقالنا هذا المتواضع نجزيه إنصافًا بإنصاف !

فهرس المحتويات